/ سورة طه [٣٠و]

مكّيّة، وهي مائة وأربع[١] وثلاثون[٢] آيةً.[٣]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾

﴿طه﴾ فخّمهما قالونُ[٤] وابن كثير وابن عامر وحفصٌ ويعقوبُ على الأصل، و"الطاء" وحدَه أبو عمرو ووَرشٌ[٥] لاستعلائه، وأمالَهما الباقون.[٦] وهو مِن الفواتح التي يُصدّر بها السوَر الكريمة، وعليه جمهورُ المتقِنين. وقيل: معناه "يا رجلُ"، وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جُبير

---

١ ط س: وثلاثون.

٢ ط س: وأربع.

٣ ط س: آيات.

٤ هو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني، أبو موسى (ت. ٢٢٠هـ/٨٣٥م). الإمام المجوِّد النحوي، مولى الأنصار، ومُقرئ المدينة وتلميذ نافع القارئ. وقيل: ربيبه ولقّبه قالون لجَودة حفظه ومعناه بلغة الروم: جيّد. انتهت إليه الرياسة في علوم العربيّة والقراءة في زمانه في الحجاز. وكان أصمّ يُقرَأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيردّ عليه اللحن والخطأ. روى عن نافع وعن ابن كثير وعن ابن أبي الزِّناد، روى عنه أبو زُرْعة وأبو ديزيل وإسماعيل القاضي وأحمد بن صالح وغيرهم، وتلا عليه ابنه أحمد والحُلواني وأبو نشيط وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠/٣٢٦-٣٢٧؛ والأعلام للزركلي، ٥/١١٠.

٥ هو عثمان بن سعيد بن عديّ المصري، أبو سعيد وأبو عمرو (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م). مِن كبار القرّاء، أصله مِن القيروان، ومولده ووفاته في مصر. جوّد ختمتين على أستاذه نافع ولقّبه نافع ورشًا لشدّة بياضه، والورش لبن يُصنَع، وكان لا يكرهه ويقول: نافع أستاذي سمّاني به. كان أشقرَ أزرقَ رَبْعة سمينًا. وكان ماهرًا بالعربيّة، ثقة في الحروف حجّة، جيّد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز ويمدّ ويشدِّد ويبيّن الإعراب، لا يملّه سامعه. انتهت إليه رئاسة الإقراء. تلا عليه أحمد بن صالح الحافظ، وداود بن أبي طيبة ويوسف الأزرق وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩/٢٩٥؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٠٥.

٦ انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٦٨.

وقَتادةَ وعِكرمةَ والكلبي،[١] إلّا أنّه عند سعيد على اللغة النبطيّة،[٢] وعند قتادةَ على السُّريانيّة،[٣] وعند عِكرمةَ على الحبشيّة، وعند الكلبي على لغة عَكّ،[٤] وقيل: عُكْل،[٥] وهي لغة يمانيّة.[٦] قالوا: إن صحّ فلعلّ أصلَه "يا هذا" فتصرّفوا فيه بقلب "الياء" طاءً وحذفِ "ذا" مِن "هذا".[٧] وما استُشهد به مِن قول الشاعر:

إنّ السفاهة طه في خلائقكُمْ لا قدّس الله أخلاقَ الملاعينِ[٨]

ليس بنصّ في ذلك؛ لجواز كونه قسمًا كما في «حم لا يُنْصرون».[٩]

وقد جُوِّز أن يكون الأصل "طَأْها" بصيغة الأمر مِن "الوطء"، فقُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا لانفتاح ما قبلها، كما في قول مَن قال:

لا هَنـاكِ المَرتعُ[١٠]

---

١ انظر: **جامع البيان** للطبري، ١٦/٥-٧؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٢/٥؛ **واللباب** لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس وعِكرمةَ والضحّاك في **جامع البيان** للطبري، ١٦/٥-٦؛ وعن سعيد بن جُبير في **اللباب** لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٣ مرويّ عن سعيد بن جُبير وابن عبّاس وعكرمةَ ومجاهد وقتادة في **جامع البيان** للطبري، ١٦/٦-٧؛ وعن قتادة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٢/٥.

٤ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٢/٥. | عكّ: هم بنو عَكّ بن عرقان بن الأزد، بطن مِن الأزد القحطانيّة. وذهب آخرون أنّهم مِن العدنانيّة، وهم بنو عكّ بن الديث بن عدنان. ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم. انظر: **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ٣٢٨/١؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ٣٦٦/١-٣٦٧.

٥ عُكل: بطن مِن طابخة العدنانيّة، وهم بنو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مَناة بن أدّ بن طابخة. انظر: **أنساب الأشراف** للبلاذري، ٢٦٢/١١؛ **ونهاية الأرب** للقلقشندي، ٣٦٧/١، ٣٨٣.

٦ القول في **تفسير القرطبي**، ١٦٥/١١؛ **واللباب** لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٧ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨/٣.

٨ البيت ليزيد بن المهلهل في **تفسير القرطبي**، ١٦٦/١١؛ وهو بلا عزو في **جامع البيان** للطبري، ٨/١٦؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٨/٣، وغمَز من البيت بأنّ أثر الصنعة ظاهر فيه.

٩ **مسند أحمد**، ١٦٢/٢٧ (١٦٦١٥)؛ **سنن أبي داود**، ٢٣٨/٤ (٢٥٩٧)؛ **سنن الترمذي**، ٤٨٣/٣ (١٦٨٢).

١٠ وفي هامش م: تمام البيت:

ذهبتْ بمسلمةَ البِغال عشيةً

فارعَي فزارةُ لا هَناكِ المرتعُ

والبيت للفرزدق في ديوانه، ٥٠٨/٢. وصدره فيه:

ومضتْ لمَسلَمة الرِّكاب مُودِّعًا

والبيت له في **كتاب سيبويه**، ٥٥٤/٣؛ **وضرائر الشعر** لابن عصفور، ص ٢٢٩؛ وهو بلا عزو في **الحُجّة** لأبي عليّ الفارسي، ٢١٨/٢؛ **والتفسير البسيط** للواحدي، ٢٧٩/٣ (البقرة، ١١٩/٢)، **والكشّاف** للزمخشري، ٣٨/٣، وصدره في أكثر المصادر السالفة:

راحتْ بمَسلمة البِغال عشيةً

وعجزه يُذكَر في الأمثال السائرة. انظر: **مجمع الأمثال** للمَيداني، ٢٨٩/١.

و"ها" ضميرُ الأرض، على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يطأ الأرض بقدميه لِما كان يقوم في تهجّده على إحدى رجليه مبالغة في المجاهَدة.[١]

ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف، كما تأبى التفسير بـ"يا رجلُ"، فإنّ الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفّظ بخلافه مِن خصائص حروف المُعجم.

وقرئ: "طَهْ"[٢] إمّا على أنّ أصلَه "طَأْ" فقُلبت همزته هاءً كما في أمثال "هَرَقت"،[٣] أو قُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا كما مرّ، ثمّ بُني مِنه الأمر وألحِق به هاء السكْت، وإمّا على أنّه اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الاسمين وأُقيما[٤] مُقامَهما[٥] في الدلالة على المسمَّيين، فكأنّهما[٦] اسماهما[٧] الدالّان / عليهما.[٨] [٣١ظ]

وعلى هذا ينبغي أن يحمل قولُ مَن قال: أو اكتُفى بشطرَي الكلمتين وعبّر عنهما باسمهما،[٩] وإلّا فالشطران لم يُذكرا مِن حيث إنّهما مسمَّيان لاسمَيهما ليقعا معبَّرًا عنهما؛ بل مِن حيث إنّهما جزءان لهما قد اكتُفيَ بذِكرهما عن ذِكرهما،[١٠] ولذلك وقع التلفّظ بأنفسهما لا باسميهما، بأن يُراد[١١] بضمير التثنية في الموضعَين الشطران مِن حيث هما مُسمّيان لا مِن حيث هما جزآن للاسمين، ويُراد باسمهما الشطران مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين، فالمعنى اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أي: الاسمين فعُبّر عنهما، أي: عن الشطرين مِن حيث هما مسمَّيان بهما مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين.[١٢]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعِكرمة وأبي حنيفة وورش في اختياره والوليد بن مسلم عن ابن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢١٩.

٣ لأنّ أصله: أرقتُ.

٤ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٥ وفي هامش م: أي: مقام الاسمين. «منه».

٦ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٧ وفي هامش م: أي: اسما المسمَّيين. «منه».

٨ وفي هامش م: أي: على المسمَّيين. «منه».

٩ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨/٣.

١٠ وفي هامش م: أي: عن ذِكر الاسمين. «منه».

١١ السياق: أن يحمل... بأن يُراد...

١٢ وفي هامش م: ويجوز أن يرجع الضميران إلى الكلمتين، ويكون المعنى: اكتُفيَ بشطرَي الاسمين وعُبّر عنهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، وهما شطراها الدالّان عليها، وجَعْل الاسمين معبّرًا عنهما باعتبار أنّهما لم يُذكرا باسمهما، بل بما يدلّ عليهما. ولو قيل: "وعُبّر عنهما بهما" لكان أظهر. «منه».

وأمّا حَمْله على معنى أنّه اكتُفي في الكتابة بشطرَي الكلمتين يعني "طا" على تقديرَي كونه أمرًا وكونه حرفَ نداء، و"ها" على تقديرَي كونها كناية[1] الأرض وكونها حرفَ تنبيه، وعُبِّر عن ذينك الشطرين في التلفّظ باسمهما،[2] فبيِّن البُطلان؛[3] كيف؟ و"طا" و"ها" على ما ذُكر مِن التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين؛ بل الأوّل أَمر أو حرفُ نداء والثاني ضمير الأرض أو حرفُ تنبيه، على أنّ كتابة صورة الحرف والتلفّظَ بغيره مِن خواصّ حروف المعجم كما مرّ.[4]

فالحقّ ما سلَف مِن أنّها مِن الفواتح إمّا مسرودةٌ على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة،[5] فلا محلَّ لها مِن الإعراب، وكذا ما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، فإنّه استئناف، مَسوق لتسليته صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يعتريه مِن جهة المشركين مِن التعب، فإنّ الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه «أشقى مِن رائض مُهْر»،[6] أي: ما أنزلناه عليك لتتعبَ / بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العُتاة ومحاورة الطُّغاة وفَرْط التأسّف على كفرهم به والتحسّر على أن يؤمِنوا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ الآية [الكهف، ٦/١٨]؛ بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلتَ فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك. [٣١و]

أو لصَرْفه[7] عليه السلام عمّا كان عليه مِن المبالغة في المجاهدة في العبادة، كما يُروى أنّه عليه السلام كان يقوم بالليل حتّى ترِم قدماه، فقال له جبريلُ

---

١ س + عن.

٢ القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤٤و.

٣ السياق: وأمّا حَمْله... فبيّن البطلان...

٤ وفي هامش م: نعم لو حُمل على معنى أنّه اكتُفيَ في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أعني "طا" و"ها" وعُبِّر عنهما على تقديرَي كلّ منهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، أعني شطرَيهما الدالّين عليهما بطريق الرمز، على منهاج قوله:

قلتُ لها قفي فقالتْ لي قاف

لكان له وجه. «منه». | الرجز للوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط في شرح أبيات شواهد الشافية للبغدادي، ٢٧١/٤؛ وهو بلا نسبة في تفسير الطبري، ٢١٦/١ (البقرة، ١/٢)؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٦٢/١ (البقرة، ١/٢). وروايتها فيها:

قلتُ لها قفي قالتْ قاف

٥ فصّل ذلك في تفسير الآية الأولى منها.

٦ في مجمع الأمثال للميداني، ١٤٨/١؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٥/١، وفيهما «أتعَبُ» مكان «أشقى». جاء بلفظه ههنا في أساس البلاغة للزمخشري، «شقي».

٧ السياق: مَسوق لتسليته... أو لصرفه...

عليهما السلام: «أَبْقِ على نفسك فإنّ لها عليك حقًّا»،[١] أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنَهْك نفسك وحملِها على الرياضات الشاقّة والشدائد الفادحة، وما بُعثت إلّا بالحنيفيّة السَّمْحة.

وقيل: إنّ أبا جهل والنضْر بن الحارث قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّك شقيّ حيث تركتَ دين آبائك، وإنّ القرآن نزَل عليك لتشقى به، فرُدّ ذلك بأنّا ما أنزلناه عليك لِما قالوا.[٢]

والأوّل هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتي.

هذا، وإمّا اسم للقرآن[٣] محلُّه الرفع على أنّه مبتدأ ما بعده خبره، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ظاهر أوقِع موقعَ العائد إلى المبتدأ، كأنّه قيل: القرآن[٤] ما أنزلناه عليك لتشقى، أو النصبُ على إضمار فعل القسَم، أو الجرُّ بتقدير حرفه وما بعده جوابه.

وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسمًا للسورة أيضًا، بخلاف الوجه الأوّل[٥] فإنّه لا يتسنّى على ذلك التقدير، لكن لا لأنّ المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مَقامَه، فإنّ القرآن صادق على الصورة لا محالةَ، إمّا بطريق الاتّحاد بأن يُراد به القَدْر المشترَك بين الكلّ والبعض، أو باعتبار الاندراج إن أريدَ به الكلّ؛ بل لأنّ نفيَ كون إنزاله للشقاء يستدعي سَبْق وقوع الشقاء مترتّبًا على إنزاله قطعًا، إمّا بحسب الحقيقة / كما إذ أريدَ به معنى التعب، أو بحسب زَعْم [٣١ظ] الكفرة كما لو أريدَ به ضدّ السعادة، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يُتصوَّر في إنزال ما أُنزل مِن قبل.

وأمّا إنزال السورة الكريمة فليس ممّا يمكن ترتُّب الشقاء السابق عليه حتى يُتصدّى لنفيه منه، أمّا باعتبار الاتّحاد فظاهر، وأمّا باعتبار الاندارج فلأن مآله أن يقال: هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمِل عليها لتشقى. ولا يخفى أن جَعْلها

---

١ بمعناه في مسند أحمد، ١٣٨/٣٠ (١٨١٩٨)؛ وصحيح البخاري، ١٣٥/٦ (٤٨٣٧)؛ وسنن النسائي، ٢١٩/٣ (١٦٤٤)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

٢ القول في أسباب النزول للواحدي، ص ٣١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

٣ السياق: إما مسرودة... وإمّا اسم للقرآن...

٤ س - القرآن.

٥ وفي هامش م: هو الرفع على الابتداء. «منه».

مُخبَرًا عنها مع أنّه لا دخلَ لإنزالها في الشقاء السابق أصلًا ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ نصب على أنّه مفعولٌ له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾،[1] لكن لا مِن حيث إنّه معلَّل بالشقاء على معنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه إلّا تذكرةً، الآية، كقولك: "ما ضربتُك للتأديب إلّا إشفاقًا" لِما أنّه يجب في أمثاله أن يكون بين العلّتين ملابسة بالسببيّة والمسبَّبيّة حتمًا كما في المثال المذكور، وفي قولك: "ما شافهتُك بالسوء لتتأذّى إلّا زجرًا لغيرك"، فإنّ التأديب في الأوّل مسبَّب عن الإشفاق والتأذّي في الثاني سبب لزجر الغير، وقد عرفتَ ما بين الشقاء والتذكرة مِن التنافي.

ولا يُجدي أن يرادَ به التعب في الجملة المجامِع للتذكرة لظهور ألّا ملابسةَ بينهما بما ذُكر مِن السببيّة والمسبّبيّة وإنّما يُتصوَّر ذلك أن لو قيل مكانَ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: إلّا تكثيرًا لثوابك، فإنّ الأجر بقَدْر التعب، ولا مِن حيث إنّه بدل مِن محلّ ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء، ٤/٦٦] لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفتَ حالَهما؛ بل مِن حيث إنّه معطوفٌ عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد مِن الاستثناء المنقطع، كأنّه قيل: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب[2] في تبليغه ولكن تذكرة ﴿لِمَن يَخْشَىٰ﴾.

[٣٢و] / وقد جُرّد "التذكرة" عن "اللام" لكونها فعلًا لفاعل الفعل المعلّل، أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى الله عزّ وعلا ويتأثرَ بالإنذار لرقّة قلبه ولِين عَريكته أو لمَن عَلِم الله تعالى أنّه يخشى بالتخويف. وتخصيصُها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنّهم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر مؤكِّد لمضمر مستأنَف مقرِّر لِما قبله، أي: نُزّل تنزيلًا، أو لِما يفيده الجملة الاستثنائيّة فإنّها متضمِّنة لأن يقال: أنزلناه للتذكرة، والأوّل هو الأنسب بما بعده مِن الالتفات، أو منصوبٌ على المدح والاختصاص.

---

١ طه، ٢/٢٠.

٢ وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

وقيل: هو منصوب بـ﴿يَخْشَىٰ﴾ على المفعوليّة، أي: يخشى تنزيلًا مِن الله تعالى.[١] وأنت خبير بأنّ تعليقَ الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود، نعم قد يعلَّق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة، ٦٤/٩].

وقيل: هو بدل مِن ﴿تَذْكِرَةً﴾ لكن لا على أنّه مفعول له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾،[٢] إذ لا يعلَّل الشيء بنفسه ولا بنوعه؛ بل على أنّه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقعَ الحال مِن "الكاف" في ﴿عَلَيْكَ﴾ أو مِن ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾،[٣] ولا مساغَ له إلّا بأن يكون قيدًا لـ﴿أَنزَلْنَا﴾[٤] بعد تقيّده بالقيد الأوّل. وقد عرفتَ حاله فيما سلَف، وقُرئ: "تَنْزِيْلٌ"[٥] على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف.

و﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ متعلّقة بـ﴿تَنزِيلًا﴾، أو بمضمر هو صفة له مؤكِّدة لِما في تنكيره مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب / الأفعال والصفات إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق [٣٢ظ] الإبهام ثمّ التفسير لزيادة تحقيق وتقرير.

وتخصيصُ خلقهما بالذِّكر مع أنّ المراد خَلْقهما بجميع ما يتعلَّق بهما كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية،[٦] لأصالتهما واستتباعهما لِما عداهما. وتقديمُ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ لكونه أقرب إلى الحسّ أظهرَ عنده. ووصفُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ"العُلا"، وهو جَمْع "العَلياء" تأنيثُ "الأعلى"، لتأكيد الفخامة مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل.

وكلّ ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٧] مَسوق لتعظيم شأن المنزِل عزّ وجلّ المستتبع لتعظيم المنزَل الداعي إلى تربية المهابة وإدخالِ الروعة

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠/٣.
٢ طه، ٢/٢٠.
٣ طه، ٢/٢٠.
٤ طه، ٢/٢٠.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٥؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٠.
٦ طه، ٦/٢٠.
٧ طه، ٨/٢٠.

المؤدِّية إلى استنزال المتمرِّدين عن رتبة العتوّ والطُّغيان واستمالتهم نحو الخشية المُفضِية إلى التذكّر والإيمان.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفع على المدح، أي: هو الرحمن، وقد عرفتَ في صدر سورة البقرة[1] أنّ المرفوع مدحًا في حكم الصفة الجارية على ما قبله وإن لم يكن تابعًا له في الإعراب، ولذلك التزموا حَذْف المبتدأ ليكون في صورة متعلَّق مِن متعلَّقاته، وقد قُرئ بالجرّ[2] على أنّه صفة صريحة للموصول. وما قيل مِن أنّ الأسماء الناقصة لا يُوصَف مِنها إلّا "الذي" وحدَه مذهبُ الكوفيّين.[3]

وأيًّا ما كان فوَصْفه بالرحمانيّة إثرَ وصفه بخالقيّة السماوات والأرض للإشعار بأنّ خَلْقهما مِن آثار رحمته تعالى، كما أنّ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [النبأ، ٣٧/٧٨] للإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الرحمة، وفيه إشارة إلى أنّ تنزيل القرآن أيضًا مِن أحكام رحمته تعالى، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن، ١/٥٥-٢].

أو رَفْع على الابتداء[4] و"اللام" للعهد والإشارة إلى الموصول، والخبرُ قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. / وجعلُ الرحمة عنوانَ الموضوع الذي شأنه [٣٣و] أن يكون معلوم الثُبوت للموضوع عند المخاطَب للإيذان بأنّ ذلك أمر بيّن لا سُترةَ به غنيّ عن الإخبار به صريحًا. و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ قدِّمت عليه لمراعاة الفواصِل، والجارُّ والمجرور على الأوّل[5] خبرُ مبتدأ محذوف، كما في قراءة الجرّ. وقد جُوِّز أن يكون خبرًا بعد خبر.[6]

---

١ في تفسير طه، ٣/٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٥/١٣.

٤ السياق: رفع على المدح... أو رفع على الابتداء...

٥ وفي هامش م: هو كون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفعًا على المدح. «منه».

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

والاستواء على العرش مجاز مِن المُلك والسلطانِ متفرّع على الكناية فيمَن يجوّز عليه القعود على السرير، يقال: "استوى فلان على سرير المُلك" يراد به "مَلَك" وإن لم يقعُد على السرير أصلًا. والمرادُ بيان تعلّق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سواء كان ذلك بالجزئيّة مِنهما أو بالحلول فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن الموجودات الكائنة في الجوّ دائمًا كالهواء والسحاب، أو أكثريًّا كالطير، أي: له وحدَه دون غيره لا شركةً ولا استقلالًا كلُّ ما ذُكر مُلكًا وتصرّفًا وإحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: ما واراه التراب. وذِكرُه مع دخوله تحت ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير، رُوي عن محمّد بن كعب: «أنّه ما تحت الأرضينَ السبع».[1] وعن السُّدّي: «أنّ الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة».[2]

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ بيان لإحاطة عِلمه تعالى بجميع الأشياء إثرَ بيان سَعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات، أي: وإن تجهَر بذِكره تعالى ودعائه فاعلَم أنّه تعالى غنيّ عن جهرك. ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: ما أسررتَه إلى غيرك، وشيئًا أخفى مِن ذلك وهو ما أخطَرتَه ببالك مِن غير أن تتفوّه به أصلًا، أو ما أسررتَه / لنفسك وأخفى منه وهو ما ستُسِرّه فيها فيما سيأتي. [٣٣ظ]

وتنكيرُه للمبالغة في الخفاء. وهذا إمّا نَهْي عن الجهر كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف، ٢٠٥/٧]، وإمّا إرشاد للعباد إلى أنّ الجهر ليس لإسماعه سبحانه؛ بل لغرض آخرَ مِن تصوير النفس بالذِّكر، وتثبيته فيها، ومنعِها مِن الاشتغال بغيره، وقطعِ الوسوسة عنها، وهضمِها بالتضرّع والجُؤار.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٢/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤١٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف مَسوق لبيان أنّ ما ذُكر مِن صفات الكمال موصوفُها ذلك المعبود بالحقّ، أي: ذلك المنعوتُ بما ذُكر مِن النعوت الجليلة اللهُ عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحقيق للحقّ وتصريح بما تضمّنه ما قبله مِن اختصاص الألوهيّة به سبحانه، فإنّ ما أُسند إليه تعالى مِن خَلْق جميع الموجودات والرحمانيّة والمالكيّة للكلّ والعِلم الشامل ممّا يقتضيه اقتضاء بيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بيان لكون ما ذُكر مِن الخالقيّة والرحمانيّة والمالكيّة والعالميّة أسماءَه وصفاتِه مِن غير تعدّد في ذاته تعالى. فإنّه رُوي أنّ المشركين حين سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمن»، قالوا: ينهانا أن نعبُد إلهين وهو يدعو إلهًا آخرَ.[1] و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث "الأحسن" يُوصَف به الواحدة المؤنّثة والجمعُ مِن المذكّر والمؤنّث كـ﴿مَشَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه، ١٨/٢٠] و﴿ءَايَتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه، ٢٣/٢٠].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ استئناف مَسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مَساق الحديث وبيانِ أنّه أمر مستمرّ فيما بين الأنبياء كابرًا عن كابر، وقد خُوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه، ١٤/٢٠]، وبه ختَم عليه السلام مقالَه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه، ٩٨/٢٠].

[٣٤و] وأمّا ما قيل / مِن أنّ ذلك لترغيب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمّل أعباء النبوّة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة،[2] فيأباه أنّ مساقَ النظم الكريم لصَرْفه عليه السلام عن اقتحام المشاقّ.

---

١ **التفسير البسيط** للواحدي، ٥١١/١٣ (الإسراء، ١١٠/١٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٥/٢ (الإسراء، ١١٠/١٧).

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤١/٣.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظرف للحديث. وقيل: لمضمَر مؤخَّر، أي: حين رأى نارًا كان كيت وكيت. وقيل: مفعول لمضمر مقدّم، أي: اذكرْ وقتَ رؤيته نارًا.[١]

رُوي أنّه عليه السلام استأذن شعيبًا عليهما السلام في الخروج إلى أمّه وأخيه فخرج بأهله وأخَذ على غير الطريق مخافةً مِن ملوك الشام، فلمّا وافى واديَ طُوى وهو بالجانب الغربيّ مِن الطُّور وُلد له وَلد في ليلة مظلِمة شاتية مُثلِجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده، وقَدَح فصَلَد زَندُه،[٢] فبينما هو في ذلك إذ رأى نارًا على يسار الطريق مِن جانب الطُّور.[٣]

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أي: أقيموا مكانكم، أمرهم عليه السلام بذلك لئلّا يتّبعوه فيما عزَم عليه مِن الذهاب إلى النار كما هو المعتاد، لا لئلّا ينتقلوا إلى موضع آخرَ، فإنّه ممّا لا يخطُر بالبال. والخطابُ للمرأة والولد والخادم. وقيل: لها وحدَها، والجمعُ إمّا لظاهر لفظ الأهل،[٤] أو للتفخيم كما في قول مَن قال:

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ[٥]

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها إبصارًا بيّنًا لا شُبهةَ فيه. وقيل: الإيناسُ خاصّ بإبصار ما يؤنَس به.[٦] والجملة تعليل للأمر أو المأمورِ به. ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: أجيئكم[٧] مِن النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي: بشُعلة مقتبَسة مِن معظم النار، وهي المرادة بـ"الجذوة" في سورة القَصص.[٨] وبـ"الشهاب القبس".[٩]

---

١ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤١/٣.

٢ صَلَد زَنده: صوّت ولم يُخرِج نارًا. والزَّند: هو العودُ الأعلى الذي تُقتَدح به النار. **لسان العرب** لابن منظور، «صلد»، «زند».

٣ الخبر بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٥/٥؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٨٤/٢-٣٨٥.

٤ القول في **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٦٣/١٤.

٥ وفي هامش م: تمامه:
وإن شئتِ لم أطعم نُقاخًا[(١)] ولا بَرْدا

| [(١)] هامش م: ماءً باردًا عذبًا. | ومضى البيت تامًّا بتخريجه عند تفسير الآية التاسعة والأربعين بعد المئتين من سورة البقرة.

٦ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤١/٣.

٧ وفي هامش م: فسِّر بذلك للتنبيه على أنّه صيغة المضارع لا صيغة الفاعل. «منه».

٨ في الآية التاسعة والعشرين منها.

٩ في الآية السابعة مِن سورة النمل.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ هاديًا يدلُّني على الطريق على أنّه مصدر سُمّي به الفاعل مبالغةً، أو حُذف منه المضاف، أي: ذا هداية، أو على أنّه إذا وُجد الهادي فقد وُجد الهدى. وقيل: هاديًا يهديني إلى أبواب الدِّين، فإنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهِمّة الدينيّة في عامّة أحوالهم لا يشغَلهم عنها شاغل.[1] / والأوّل هو [٣٤ظ] الأظهر؛ لأنّ مساق النظم الكريم لتسلية أهله، وقد نُصّ عليه في سورة القَصص حيث قيل: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ الآية [القصص، ٢٩/٢٨].

وكلمة ﴿أَوْ﴾ في الموضعين لمَنْع الخلوّ دون منع الجمع. ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، أو لأنّهم عند الاصطلاء يكتنفونها قيامًا وقعودًا فيُشرفون عليها.

ولمّا كان الإتيان بهما مترقَّبًا غيرَ محقَّق الوقوع صُدِّر الجملة بكلمة الترجّي، وهي إمّا علّة لفعل قد حُذف ثقةً بما يدلّ عليه مِن الأمر بالمُكث والإخبار بإيناس النار وتفاديًا عن التصريح بما يُوحشهم، وإمّا حال من فاعله،[2] أي: فأذهبُ إليها لآتيَكم أو كي آتيَكم أو راجيًا أن آتيَكم مِنها بقبس... الآية. وقد مرّ تحقيق ذلك مفصّلًا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢١/٢].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رأى شجرة خضراءَ أطافت بها مِن أسفلها إلى أعلاها نار بيضاءُ تتّقدُ كأضوَأ ما يكون، فوقف متعجّبًا مِن شدّة ضوئها وشدّة خُضرة الشجرة، فلا النارُ تُغيّر خُضرتها ولا كثرةُ ماء الشجرة تُغيّر ضوءها».[3]

قالوا: النار أربعة أصناف: صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنّم،

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

٢ ط س - وإمّا حال مِن فاعله.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام. وقالوا أيضًا:[١] هي أربعة أنواع: نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نورَ له ولا إحراقَ وهي نار الأشجار، ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام، ونوع له إحراق بلا نور وهي نار الجحيم.[٢] رُوي أنّ الشجرة كانت عَوْسَجة.[٣] وقيل: كانت سَمُرة.[٤]

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: نودي فقيل: يا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، أو عُومِل النداء معاملةَ "القول" لكونه ضربًا مِنه. وقُرئ بالفتح،[٥] أي: "بأنّي".[٦] وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشُّبهة.

رُوي أنّه لمّا نُودي يا موسى، قال عليه السلام: «مَن المتكلِّم؟» فقال الله عزّ وجلّ: / ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فوسوس إليه إبليس: «لعلّك تسمع كلام شيطان»، فقال: «أنا عرفتُ أنّه كلام الله تعالى، بأنّي أسمعه مِن جميع الجهات بجميع الأعضاء».[٧] [٣٥و]
قلتُ: وذلك لأنّ سماع ما ليس مِن شأنه ذلك مِن الأعضاء ليس إلّا مِن آثار قُدرة الخلّاق العليم تعالى وتقدّس. وقيل: تلقّى عليه السلام كلام ربّ العزّة تلقِّيًا روحانيًّا، ثمّ تمثّل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحسّ المشترك فانتقش به مِن غير اختصاص بعُضو وجهةٍ.[٨]

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك لأنّ الحُفْوة أدخلُ في التواضع وحسنِ الأدب، ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين. وقيل: ليباشر الواديَ بقدميه تبرُّكًا به.[٩] وقيل: لِما أن نعليه كانا مِن جلد حمار

---

١ س - أيضًا.
٢ س: جهنّم.
٣ مرويّ عن قتادة ومقاتل والكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.
٤ مرويّ عن ابن مسعود في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.
٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.
٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥.
٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.
٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٥/٢.
٩ مرويّ عن الحسن وعكرمة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٦-٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

غير مدبوغ.[١] وقيل: معناه فرّغْ قلبك مِن الأهل والمال.[٢] و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها، فإنّ ربوبيّته تعالى له عليه السلام مِن موجِبات الأمر وداوعيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخَلْع المأمور به وبيانٌ لسبب ورود الأمر بذلك مِن شرف البُقعة وقُدْسِها. رُوي أنّه عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي.[٣] ﴿طُوًى﴾ بضمّ الطاء غيرَ منوّن، وقُرئ منوّنًا،[٤] وقُرئ بالكسر منوّنًا[٥] وغيرَ منوّن،[٦] فمَن نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مِن الطيّ مصدر لـ﴿نُودِيَ﴾، أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: نُودي نداءين، أو قُدّس مرّة بعد أخرى.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك للنبوّة والرسالة. وقُرئ: "وَأَنَا اخْتَرَنَاكَ" بالفتح[٧] والكسر.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ لترتيب الأمر أو المأمور به على ما قبلها، فإنّ اختياره عليه السلام لِما ذُكر مِن موجِبات الاستماع والأمر به.

[٣٥ظ] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ / متعلِّقة بـ﴿ٱسْتَمِعْ﴾، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: فاستمع للذي يُوحى إليك أو للوحي، لا بـ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ كما قيل، لكن لا لِما قيل مِن أنّه مِن باب التنازُع وإعمال الأوّل،[٩] فلا بدّ حينئذ مِن إعادة الضمير

---

١ مرويّ عن ابن مسعود والسدّي وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٦/٢٣-٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٥.

٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وعكرمة وأبي حَيْوَة وابن مجالد عن عاصم ويزيد بن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبي زيد ويونس والجهضمي ثلاثتهم عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

٧ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والسُّلمي وطلحة وعيسى الهَمْداني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٣.

٩ في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

مع الثاني؛ بل لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بدل مِن ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ولا ريبَ في أنّ اختياره عليه السلام ليس لهذا الوحي فقط.[1]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإنّ اختصاص الألوهيّة به سبحانه وتعالى مِن موجِبات تخصيص العبادة به عزّ وجلّ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خُصّت الصلاة بالذِّكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفَضْلها وإنافتها على سائر العبادات بما نِيطت به مِن ذِكر المعبود وشُغل القلب واللسان بذِكره، وذلك قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لتذكُرني فإنّ ذِكري كما ينبغي لا يتحقّق إلّا في ضمن العبادة والصلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لذِكري خاصّة لا تشوبُه بذِكر غيري، أو لإخلاص ذِكري وابتغاء وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِد بها غرَضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناسٍ.

وقيل: لذِكري إيّاها وأمْري بها في الكتب، أو لأن أذكُرَك بالمدح والثناء. وقيل: لأوقات ذِكري وهي مواقيتُ الصلوات، أو لذِكر صلاتي،[2] لِما روي أنّه عليه السلام قال: «مَن نام عن صلاة أو نسِيَها فليُصلِّها إذا ذَكَرها، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾».[3] وقُرئ: "لِذِكْرَى"[4] بألف التأنيث و"لِلذِّكْرَى"[5] / معرَّفًا و"لِلذِّكْرِ"[6] بالتعريف والتذكير. [٣٦و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامةِ الصلاة، أي: كائنةٌ لا محالةَ، وإنّما عُبّر عن ذلك بالإتيان تحقيقًا لحصولها بإبرازها في معرِض أمر محقَّق متوجّه نحو المخاطَبين.

---

١ الردُّ منقول في اللباب لابن عادل، ١٣/١٩٣.

٢ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١/١٢٢ (٥٩٧)؛ وصحيح مسلم، ١/٤٧٧ (٦٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ١٣/٣٢-٣٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٣/١٩٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٣/١٩٥.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: لا أُظهرها، بأن أقول: إنّها آتية، ولولا أنّ في الإخبار بذلك مِن اللطف وقطع الأعذار لَما فعلتُ، أو أكاد أُظهرها بإيقاعها مِن "أخفاه" إذا أظهره بسَلْب خفائه، ويؤيّده القراءة بفتح "الهمزة"،[1] مِن "خفاه" بمعنى أظهره. وقيل: أخفاه مِن الأضداد يجيء بمعنى الإظهار والسّتر.[2]

وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلِّق بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وما بينهما اعتراض، أو بـ﴿أُخْفِيهَا﴾ على المعنى الأخير، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لتُجزى بسعيها في تحصيل ما ذُكر مِن الأمور المأمور بها. وتخصيصُه في معرِض الغاية لإتيانها مع أنّه لجزاء كلّ نفس بما صدَر عنها سواء كان سعيًا فيما ذُكر أو تقاعدًا عنه بالمرّة أو سعيًا في تحصيل ما يُضادّه، للإيذان[3] بأنّ المراد بالذات مِن إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأمّا العقاب بتَرْكها فمِن مُقتضَيات سوء اختيار العُصاة، وبأنّ المأمور به في قوّة الوجوب والساعةَ في شدّة الهول والفظاعة بحيث يوجِبان على كلّ نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجِدَّ في تحصيل ما يُنجّيها مِن الطاعات، وتحترز عن اقتراف ما يُرديها مِن المعاصي.

وعليه مدارُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ / أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧]، فإنّ الابتلاء [٣٦ظ] مع شموله لكافّة المكلّفين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط قد عُلّق بالأخيرين، لِما ذُكر مِن أنّ المقصود الأصلي مِن إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنّما هو ظهور كمال إحسان المحسِنين وأنّ ذلك لكونه على أتمّ الوجوه الرائقة وأكمل الأنحاء اللائقة يوجِب العمل بموجَبه بحيث لا يحيد أحد عن سَننه المُستبين، بل يهتدي كلّ فرد إلى ما يُرشد إليه مِن مطلق الإيمان والطاعة، وإنّما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوّة والضعف.

---

١ قراءة شاذّة، مروية عن أبي الدرداء وسعيد بن جُبير ومجاهد وأبي البَرَهِسم والحسن وحُميد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٩٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٣.

٢ كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣/٣.

٣ السياق: وتخصيصه... للإيذان...

وأمّا الإعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمَعزِل مِن الوقوع فضلًا عن أن ينتظم في سِلك الغاية لذلك الصُّنع البديع، وإنّما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختياره مِن غير مصحِّح له ومسوِّغ. هذا ويجوز أن يُراد بالسعي مطلَق العمل.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن ذِكر الساعة ومراقبتها. وقيل: عن تصديقها.[1] والأوّل هو الأليَق بشأن موسى عليه السلام، وإن كان النهيُ بطريق التهييج والإلهاب. وتقديم الجارّ والمجرور على قوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفة له فيتمكّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن، ولأنّ في المؤخَّر نوعَ طول ربّما يُخِلّ تقديمه بجزالة النظم الكريم.

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للكافر عن صدّ موسى عليه السلام عن الساعة لكنّه في الحقيقة / نهيٌ له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ [٣٧و] وجه وآكَده، فإنّ النهيَ عن أسباب الشيء ومباديه المؤدِّية إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وإبطالٌ للسببيّة عن أصلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة، ٢/٥]، فإنّ صدّ الكافر حيث كان سببًا لانصداده عليه السلام كان النهيُ عنه نهيًا بأصله وموجِبه وإبطالًا له بالكلّيّة.

ويجوز أن يكون مِن باب النهي عن المسبَّب وإرادة النهي عن السبب على أن يُراد نهيُه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفَرة، فإنّ ذلك سبب لصدّهم إيّاه عليه السلام، كما في قوله: "لا أُرَينّك ههنا"، فإنّ المراد به نهيُ المخاطَب عن الحضور لديه الموجِب لرؤيته.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما يهواه نفسه مِن اللذات الحسّيّة الفانية ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلِكَ، فإنّ الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما يُنجي عن أهوالها مستتبِعٌ للهلاك

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣/٣.

لا محالةَ، وهو في محلّ النصب على جواب النهي، أو في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: فأنت تَرْدى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ شروع في حكاية ما كُلّفه عليه السلام مِن الأمور المتعلّقة بالخَلْق إثرَ حكايةِ ما أُمر به مِن الشئون الخاصة بنفسه، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة في حيّز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس، وهو أدخَل بحسب المعنى وأوفَق بالجواب. و﴿بِيَمِينِكَ﴾ متعلّق بمضمر وقع حالًا، أي: وما تلك قارّة أو مأخوذة بيمينك، والعاملُ معنى الإشارة، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود، ١١/٧٢].

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ موصولة، أي: ما التي هي بيمينك؟ وأيًّا ما كان فالاستفهام إيقاظ / وتنبيه له عليه السلام على ما سيبدو له مِن التعاجيب. وتكريرُ النداء لزيادة التأنيس والتنبيه. [٣٧ظ]

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ نسَبها إلى نفسه تحقيقًا لوجه كونها بيمينه وتمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام، وقُرئ: "عَصَيَّ"[1] على لغة هُذيل. ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أي: أخبِط[2] بها الورقَ وأُسقِطه ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾. وقُرئ: "أَهِشُّ"[3] بكسر الهاء، وكلاهما مِن "هَشّ الخبزُ يهِشّ" إذا انكسر لهشاشته، وقُرئ بالسين غير المعجَمة[4] وهو زَجْر الغنم. وتعديتُه بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمين معنى الإنحاء والإقبال، أي: أزجُرها مُنحِيًا ومُقبلًا عليها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق والثقفي والجَحدري، والزُّبيري عن يعقوب. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٤.

٢ الخبط: ضَرْب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. **لسان العرب** لابن منظور، «خبط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن، والمغيرة عن إبراهيم النخَعي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حاجات أخرُ مِن هذا الباب، مثلُ ما رُوي أنّه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلّق بها أدواته مِن القوس والكِنانة والجِلاب[١] ونحوِها، وإذا كان في البرِّيّة ركَزها وعرَض الزنذين على شُعبتيها وألقى عليها الكِساء واستظلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[٢] وصله بها، وإذا تعرَّضت لغنمه السباع قاتل بها.[٣]

قيل: ومِن جملة المآرب أنّها كانت ذات شُعبتين ومِحْجَن،[٤] فإذا طال الغُصن حناه بالمِحْجن وإذا أراد كسره لواه بالشُّعبتين.[٥]

وكأنّه عليه السلام فهِم أنّ المقصود مِن السؤال بيانُ حقيقتها وتفصيلُ منافعها بطريق الاستقصاء حتّى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواصّ بديعة عُلم أنّها آيات باهرة ومعجزات / قاهرة أحدَثها الله تعالى، [٣٨و] وليست مِن الخواصّ المترتِّبة عليها، فذِكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والإجمال على معنى أنّها مِن جنس العصا مستتبِعةٌ لمنافع بنات جنسها ليطابقَ جوابُه الغرضَ الذي فهِمه مِن سؤال العليم الخبير.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عزّ وجلّ؟ فقيل: قال: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ لترى مِن شأنها ما لم يخطُر ببالك مِن الأمور. وتكرير النداء لتأكيد التنبيه.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ رُوي أنّه عليه السلام حين ألقاها انقلبت حيّة صفراءَ في غِلَظ العصا، ثمّ انتفخت وعظُمت، فلذلك شُبّهت بالجانّ تارة وسُمّيت ثُعبانًا أخرى.[٦] وعُبّر عنها ههنا بالاسم العامّ للحالين.[٧]

---

١ الجِلاب والمِحلب: الإناء الذي يُحلب فيه اللبن. **لسان العرب** لابن منظور، «حلب».

٢ الرِّشاء: الحبل، ومنه حبل الدلو يُمدّ إلى البئر. **لسان العرب** لابن منظور، «رشا».

٣ بلفظ قريب **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤/٣؛ وبعضه في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٨/٥-٢٦٩.

٤ المِحجن والمِحجنة: عصًا معوجّة معقَّفة الرأس. **لسان العرب** لابن منظور، «حجن».

٥ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤/٣.

٦ الكلام في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٦٩/٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٤٥/٣.

٧ الكلام في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٨٧/٢.

وقيل: قد انقلبت مِن أوّل الأمر ثعبانًا.[١] وهو الأليَق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦]. وإنّما شُبِّهت بالجانّ في الجلادة وسُرعة الحركة لا في صِغَر الجُثّة.

وقوله تعالى: ﴿تَسْعَىٰ﴾ إمّا صفةٌ لـ﴿حَيَّةٌ﴾ أو خبرٌ ثانٍ عند مَن يجوّز كونَه جملة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبَق ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: انقلبت ثعبانًا ذكَرًا يبتلع كلَّ شيء مِن الصخر والشجَر، فلمّا رآه كذلك خاف ونفَر، وملَكه ما يملِك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف مِن الفزع والنِّفار.[٢] وفي عطف النهي على الأمر إشعارٌ بأنّ عدم المنهيّ عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ مع كونه استئنافًا مَسوقًا[٣] لتعليل الامتثال بالأمر والنهي، فإنّ إعادتها إلى ما كانت عليه / مِن موجِبات أخذِها [٣٨ظ] وعدمِ الخوف منها، عِدَةٌ[٤] كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له عليه السلام ليكون على طُمَأنينة مِن أمره ولا يعتريَه شائبةُ تَزلزُل عند مُحاجّة فرعونَ، أي: سنُعيدها بعد الأخْذ إلى حالتها الأولى التي هي الهيئة العَصَويّة. قيل: بلَغ عليه السلام عند ذلك مِن الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يُدخل يدَه في فمها ويأخذ بلَحْيَيها.[٥]

و"السِّيرة" فِعْلة مِن "السَّير" تُجُوِّز بها للطريقة والهيئة، وانتصابُها على نَزْع الجارّ، أي: إلى سيرتها، أو على أنّ "أعاد" منقول مِن "عاده" بمعنى عاد إليه، أو على الظرفيّة، أي: سنُعيدها في طريقتها، أو على تقدير فعلها وإيقاعِها حالًا مِن المفعول، أي: سنُعيدها عصًا كما كانت مِن قبل تسير سيرتَها، أي: سائرة سيرتَها الأولى، فتنتفع بها كما كنتَ تنتفع مِن قبل.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

٢ ما وقفتُ عليه في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

٣ س: مسوق.

٤ السياق: وقوله تعالى... عِدةٌ...

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك بعدما أخَذ الحيّة وانقلبت عصًا كما كانت، أي: أدخِلها تحت عضُدِك، فإنّ جناحَي الإنسان جنباه كما أنّ جناحَي العسكر ناحيتاه، مستعارٌ مِن جناحَي الطائر، وقد سُمّيا جناحَين لأنّه يُجنِحُهما، أي: يُميلهما عند الطيران.

وقوله تعالى: ﴿تَخۡرُجۡ﴾ جواب الأمر، وقوله تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ﴾ حال مِن الضمير فيه. وقوله تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن الضمير في ﴿بَيۡضَآءَ﴾، أي: كائنة مِن غير عَيب وقُبح، كُنّي به عن البرَص كما كُنّي بالسَّوأة عن العورة لِما أنّ الطِّباع تعافه وتنفِر عنه. رُوي أنّه عليه السلام كان آدمَ فأخرج يده مِن مِدْرَعته بيضاءَ لها شُعاع كشعاع الشمس تُغشي البصر.

﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ أي: معجزة أخرى غيرَ العصا. وانتصابُها على الحاليّة إمّا مِن الضمير في ﴿تَخۡرُجۡ﴾ على أنّها بدل مِن الحال الأولى، وإمّا مِن الضمير في ﴿بَيۡضَآءَ﴾. وقيل: مِن الضمير في الجارّ والمجرور.[1] وقيل: هي منصوبة بفعل مضمر نحو "خذْ" / أو "دونك".[2] [٣٩و]

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ متعلِّق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فعلنا ما فعلنا مِن الأمر والإظهار لنُرِيَك بذلك بعضَ آياتنا الكبرى، على أنّ ﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾ صفةٌ لـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو نُرِيَك بذلك مِن آياتنا ما هي كُبرى، على أنّ ﴿ٱلۡكُبۡرَى﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿نُرِيَكَ﴾، و﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن ذلك المفعول.

وأيًّا ما كان فـ"الآية الكبرى" عبارة عن العصا واليد جميعًا. وأمّا تعلُّقه بما دلّ عليه ﴿ءَايَةً﴾، أي: دلّلنا بها لنُرِيَك... إلخ، أو بقوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ﴾،

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢١٩/١٣.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

أو بقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾، أو بما قُدّر مِن نحو "خُذْ" و"دونَك" كما قال بكلّ مِن ذلك قائل،[1] فيؤدّي إلى عَراء آية العصا عن وصف الكِبَر، فتدبّر.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تخلُّص إلى ما هو المقصود مِن تمهيد المقدّمات السالفة، فُصِل عمّا قبله مِن الأوامر إيذانًا بأصالته، أي: اذهبْ إليه بما رأيتَه مِن الآيات الكبرى واذْعُه إلى عبادتي وحذِّره نَقمتي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به، أي: جاوَز الحدَّ في التكبّر والعتوّ والتجبّر حتّى تجاسَر على العظيمة التي هي دعوى الربوبيّة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٤٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حين أُمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال مستعينًا بربّه عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، لمّا أُمر بما أُمر به مِن الخطب الجليل تضرّع إلى ربّه عزّ وجلّ وأظهَر عَجْزه بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء، ١٣/٢٦]، وسأله تعالى أن يُوسِّع صدَره ويفسَح قلبه ويجعله عليمًا بشئون الحقّ وأحوال الخَلْق حليمًا حَمولًا، يستقبل ما عسى يَرِد عليه مِن الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحُسن الثبات، ويتلقّاها بصدر فسيح وجأش رابط، وأن يُسّهل عليه مع ذلك أَمْره الذي هو أجلّ / الأمور وأعظَمها [٣٩ظ] وأصعبُ الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع.

وفي زيادة كلمة ﴿لِى﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير، بإبهام المشروح والميسّر أوّلًا وتفسيرهما ثانيًا. وفي تقديمها وتكريرها إظهارُ مَزيدِ اعتناء بشأن كلّ مِن المطلوبَين وفَضْلِ اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به.

---

١ هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢١/١٣.

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ رُوي أنّه كان في لسانه عليه السلام رُتّة[1] مِن جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أنّ فرعون حمَله ذات يوم فأخَذ لحيته فنتَفها لِما كان فيها مِن الجواهر فغضب وأمَر بقتله، فقالت آسيةُ: إنّه صبيّ لا يفرِّق بين الجمر والياقوت، فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها في فيه.[2] قيل: واحترقت يده فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ. ثمّ لمّا دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عَجَزتَ عنه.[3]

واختُلف في زوال العُقدة بكمالها: فمَن قال به تمسَّك بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ [طه، ٣٦/٢٠]، ومَن لم يقُل به احتجّ بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ [القصص، ٣٤/٢٨] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣].[4] وأجاب عن الأوّل بأنّه لم يسأل حلّ عُقدة لسانه بالكلّيّة؛ بل حلَّ عُقدة تمنَع الإفهام، ولذلك نكرّها ووصفها بقوله: ﴿مِن لِّسَانِي﴾ أي: عقدةً كائنة مِن عُقَد لساني، وجعَل قوله تعالى: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ جوابَ الأمر وغرضًا مِن الدعاء، فبحلّها في الجملة يتحقّق إيتاء سؤله عليه السلام.[5]

والحقُّ أنّ ما ذُكر لا يدلّ على بقائها في الجملة: أمّا قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ فلأنّه عليه السلام قاله قبل استدعاء الحلّ، كما ستعرفه، على أنّ أفصحيّته منه عليهما السلام لا تستدعي بقاءها أصلًا؛ بل تستدعي عدم البقاء لِما أنّ الأفصحيّة تُوجِب ثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضًا، وذلك مُنافٍ للعُقدة رأسًا؛ وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فمِن باب غلوّ اللعين في العُتوّ والطغيان وإلّا لدلّ على عدم زوالها أصلًا؛ / وتنكيرُها إنّما يفيد قِلّتها في نفسها لا قِلّتها باعتبار كونِها بعضًا مِن الكثير. [٤٠و]

---

١ الرُّتّة: عجلة في الكلام وقِلّة أناة، وعيب قبيح في اللسان. لسان العرب لابن منظور، «رتت».

٢ مرويّ بلفظ قريب عن سعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٦/٥٣-٥٤؛ وهو بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٨؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٢٢٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٥.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦.

٥ هذا الجواب بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٩؛ وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٦.

وتعلُّق كلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن لِّسَانِي﴾ بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به؛ بل الظاهرُ تعلُّقها بنفس الفعل، فإنّ المحلول إذا كان متعلِّقًا بشيء ومتَّصلًا به فكما يتعلَّق الحلُّ به يتعلَّق بذلك الشيء أيضًا باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله منه.

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي﴾ أي: مؤازِرًا يُعاونني في تحمّل أعباء ما كُلّفتُه، على أنّ اشتقاقه مِن "الوِزْر" الذي هو الثِّقَل، أو ملجأ أعتصمُ برأيه على أنّه مِن "الوَزَر" وهو الملجأ. وقيل: أصله "أَزِير" مِن "الأَزْر" بمعنى القوّة، فعيل بمعنى مفاعل، كـ"العشير" و"الجليس"، قُلبت همزته واوًا كقلبها في "مُؤازِر".[1] ونصبُه على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱجۡعَل﴾ قُدِّم على الأوّل الذي هو قوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة.

و﴿لِي﴾ صلةٌ لـ"الجَعْل" أو متعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿وَزِيرٗا﴾، إذ هو صفة له في الأصل. و﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ إمّا صفة لـ﴿وَزِيرٗا﴾ أو صلة لـ﴿ٱجۡعَل﴾. وقيل: مفعولاه: ﴿لِي وَزِيرٗا﴾، و﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيان للوزير، و﴿مِّنۡ أَهۡلِي﴾ كما مرّ مِن الوجهين، و﴿أَخِي﴾ في الوجهين بدل مِن ﴿هَٰرُونَ﴾ أو عطفُ بيان آخرَ.[2] وقيل: هما ﴿وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾، و﴿لِي﴾ تبيينٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص، ١١٢/٤].[3] ورُدّ بأنّ شَرْط المفعولَين في باب النواسخ صحّة انعقاد الجملة الاسميّة، ولا مساغَ لجعل ﴿وَزِيرٗا﴾ مبتدأ ويُخبر عنه بما بعده.

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ كلاهما على صيغة الدعاء، أي: أحكِمْ به قوّتي واجعله شريكي في أمر الرسالة حتّى نتعاون على / أدائها كما ينبغي. [٤٠ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.

٣ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٩/٢.

وفصلُ الأوّل عن الدعاء السابق لكمال الاتّصال بينهما، فإنّ شدّ الأزْر عبارة عن جَعْله وزيرًا، وأمّا الإشراك في الأمر فحيث كان مِن أحكام الوزارة توسّط بينهما العاطف.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإنّ فِعل كلّ واحد منهما مِن التسبيح والذِّكر مع كونه مُكثِّرًا لفِعل الآخر ومُضاعِفًا له بسبب انضمامه إليه مُكثِّرٌ له في نفسه أيضًا بسبب تقويته وتأييده؛ إذ ليس المراد بالتسبيح والذِّكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلَوات حتّى لا يتفاوت حاله عند التعدّد والانفراد؛ بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المَرَدة العُتاة إلى الحقّ، وذلك ممّا لا ريبَ في اختلاف حاله في حالتي التعدّد والانفراد، فإنّ كلًّا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر مِن إظهار الحقّ ما لا يكاد يصدر عنه مثلُه حالَ الانفراد.

و﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف، أي: ننزِّهك عمّا لا يليق بك مِن الصفات والأفعال التي مِن جُملتها ما يدَّعيه فرعونُ الطاغية ويقبَله منه فئتُه الباغية مِن ادّعاء الشركة في الألوهيّة، ونَصِفُك بما يليق بك مِن صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال تنزيهًا كثيرًا أو زمانًا كثيرًا مِن جملته زمانُ دعوة فرعونَ وأوانُ المُحاجّة معه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى كي نصلّيَ لك كثيرًا ونحمَدَك ونُثنيَ عليك،[1] فلا يساعده المقام.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: عالمًا بأحوالنا وبأنّ ما دعوتُك به ممّا يُصلِحنا ويُفيدنا في تحقيق ما كُلِّفتُه مِن إقامة مراسم الرسالة، وبأنّ هارونَ نِعمَ الرِّدْء في أداء ما أُمرتُ به. و"الباء" متعلِّقة بـ﴿بَصِيرًا﴾ قُدِّمت عليه لمراعاة الفواصل.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۞﴾

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: أُعطيتَ مسئولك، "فُعْل" بمعنى "مفعول" كـ"الخُبز" و"الأُكْل" بمعنى "المخبوز" و"المأكول". و"الإيتاء" عبارة عن / تعلُّق [٤١و]

---

[1] مرويّ عن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٢؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٢٣٠.

إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتّةَ وتقديرِه إيّاها حتمًا، فكلُّها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقَّبًا بعدُ كتيسير الأمر وشدِّ الأزر، وباعتباره قيل: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص، ٣٥/٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه السلام بشرف الخِطاب إثرَ تشريفه بشرف قَبول الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطين نفس موسى عليه السلام بالقَبول، ببيان أنّه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النِّعم التامّة مِن غير سابقة دعاء منه وطلب، فلَأَن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ أَوْلى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك، أي: وبالله لقد أنعمنا. ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ أي: في وقت غير هذا الوقت، لا أنّ ذلك مؤخَّر عن هذا، فإنّ ﴿أُخْرَىٰ﴾ تأنيثُ "آخَر" بمعنى "غير".[1]

و"المرّة" في الأصل اسم للمرور الواحد، ثمّ أُطلق على كلّ فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات متعدِّيةً كانت أو لازمة، ثمّ شاع في كلّ فرد واحد مِن أفراد ما له أفراد متجدِّدة، فصار عَلَمًا في ذلك حتّى جُعل مِعيارًا لِما في معناه مِن سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرّة، ويقرب منها "الكرّة" و"التارة" و"الدفعة"، والمراد بها ههنا الوقت الممتدّ الذي وقَع فيه ما سيأتي ذِكره مِن المِنَن العظيمة الكثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ظرف لـ﴿مَنَنَّا﴾. والمراد بالإيحاء: إمّا الإيحاء على لسان نبيّ في وقتها كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [المائدة، ١١١/٥]، وإمّا الإيحاء بواسطة المَلَك لا على وجه النبوّة كما أوحيَ إلى مريم، / وإمّا الإلهامُ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل، ٦٨/١٦]، وإمّا الإراءة في المنام. [٤١ظ]

والمراد بـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي مِن الأمر بقذفه في التابوت وقَذْفه في البحر، أُبهِم أوّلًا تهويلًا له وتفخيمًا لشأنه ثمّ فُسِّر ليكون أقرَّ عند النفس. وقيل:

---

[1] وفي هامش م: فلا حاجةَ إلى التكلّف بأنّه مؤخّر عنه في الذِّكر. «منه». | والقول منقول في اللباب لابن عادل، ٢٣١/١٣.

معناه ما ينبغي أن يُوحى ولا يُخَلَّ به لعِظم شأنه وفَرْط الاهتمام به. وقيل: ما لا يُعلم إلّا بالوحي.[1] وفيه أنّه لا يُلائم المعنيين الأخيرَين للوحي؛ إذ لا تفخيمَ لشأنه في أن يكون ممّا لا يُعلم إلّا بالإلهام أو بالإراءة في المنام.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ مفسِّرةٌ، لأنّ "الوحي" مِن باب "القول"، أو مصدريّةٌ حُذف عنها "الباء"، أي: بأن اقذفيه، ومعنى القَذْف ههنا الوضعُ، وأمّا في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالإلقاءُ. وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص، ٧/٢٨]، لا القذفُ بلا تابوت.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاء البحر إيّاه بالساحل أمرًا واجبَ الوقوع لتعلّق الإرادة الربّانيّة به جُعل البحر كأنّه ذو تمييز مُطيع أُمر بذلك، وأُخرج الجواب مُخرجَ الأمر، والضمائرُ كلّها لموسى عليه السلام، والمقذوفُ في البحر والمُلقى بالساحل وإن كان هو التابوتَ أصالة، لكن لمّا كان المقصود بالذات ما فيه، جُعل التابوت تبعًا له في ذلك.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكريرُ "العدوّ" للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعارِ بأنّ عداوته له مع تحقّقها لا تؤثّر فيه ولا تضرّه؛ بل تؤدي إلى المحبّة، فإنّ الأمر بما هو سبب للهلاك صورةً مِن قذفه في البحر ووقوعه في يد عدوّ الله تعالى وعدوّه مشعرٌ بأنّ هناك لُطفًا خفيًّا مُندرِجًا تحت قَهْر صُوري. وقيل: الأوّل باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقَّع.[2]

وليس المراد بـ﴿ٱلسَّاحِلِ﴾ نفسَ الشاطئ؛ بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل مِن البحر بحيث يجري ماؤه إلى نهر فرعونَ، لِما / رُوي أنّها [٤٢و]
جعَلتْ في التابوت قُطنًا ووضعتْه فيه ثمّ قيّرتْه[3] وألقتْه في اليمّ، وكان يشرَع منه

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٩.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٠.

٣ قيّره: طلاه بالقار أو القير، وهو شيء أسودُ تُطلى به السُّفن، يمنع الماء أن يدخل. لسان العرب لابن منظور، «قير».

إلى بستان فرعونَ نهر، فدفَعه الماء إليه فأتى به إلى بِرْكة في البستان، وكان فرعونُ جالسًا ثمّة مع آسيةَ بنت مُزاحِم، فأمر به فأُخرج ففُتح فإذا هو صبيّ أصبحُ الناس وجهًا، فأحبّه عدوّ الله حبًّا شديدًا لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1] كلمةُ "مِن" متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿مَحَبَّةً﴾ مؤكِّدة لِما في تنكيرها مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: محبّة عظيمة كائنة منّي قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك مَن رآك، ولذلك أحبّك عدوّ الله وآلُه. وقيل: هي متعلِّقة بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، أي: أحببتُك ومَن أحبّه الله تعالى أحبّته القلوب لا محالةَ.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ متعلِّق بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، معطوف على علّة له مُضمَرة، أي: ليتعطّف عليك ولتُربّى بالحُنوّ والشفقة بمراقبتي وحِفظي، أو بمضمر مؤخّر هو عبارة عمّا قبله مِن إلقاء المحبّة. والجملة مبتدأة، أي: ولتصنع على عيني فعلتُ ذلك، وقُرئ: "وَلتُصْنَعْ" على صيغة الأمر بسكون اللام[3] وكسرها،[4] وقُرئ بفتح التاء والنصب،[5] أي: وليكونَ عملُك على عين منّي لئلّا يخالَف به عن أمري.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لـ﴿تُصْنَعَ﴾ على أنّ المراد به وقت وقَع فيه مشيُها إلى بيت فرعونَ، وما ترتّب عليه مِن القول والرّجْع إلى أمّها وتربيتها له بالبرّ والحُنوّ، وهو المِصداق لقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾،[6] إذ لا شفقةَ أعظم

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن شَيبة والدُّوري عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٢٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٢٨.

٦ في الآية السابقة.

مِن شفقة الأم وصُنْعِها على موجب مراعاته تعالى. وقيل: هو بدل مِن ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾،[١] على أنّ المراد به زمان متّسع متباعد الأطراف.[٢] وهو الأنسب / بما [٤٢ظ] سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾... إلى آخره، فإنّ جميع ذلك مِن المِنَن الإلهيّة ولا تعلُّق لشيء منها بالصُّنع المذكور، وأمّا كونه ظرفًا لـ﴿أَلْقَيْتُ﴾[٣] كما جُوّز فربّما يُوهِم أنّ إلقاء المحبّة لم يحصُل قبل ذلك، ولا ريبَ في أنّ معظم آثار إلقائها ظهَر عند فتح التابوت.

﴿فَتَقُولُ﴾ أي: لفرعونَ وآسيةَ حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبَل ثديَها وكان لا يقبَل ثديًا.[٤] وصيغةُ المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: يضمّه إلى نفسه ويُربّيه، وذلك إنّما يكون بقَبوله ثديَها.

يُروى أنّه فشا الخبر بمصرَ أنّ آل فرعونَ أخذوا غلامًا مِن النِّيل لا يرتضع ثديَ امرأة واضطُرّوا إلى تتبّع النساء، فخرجت أخته مريمُ لتعرِف خبره فجاءتهم متنكِّرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا، فجاءت بأمّه فقبِل ثديَها.

فـ"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن محذوف قبلها يُعطَف عليه ما بعدها، أي: فقالوا: دُلّينا عليها فجاءت بأمّك فرجعناك إليها ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلّا فزوال الحزن مقدَّم على السرور المعبَّر عنه بقُرّة العين، فإنّ التخلية متقدِّمة على التحلية. وقيل: ولا تحزن أنت بفَقْد إشفاقها.[٥]

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القِبْطي الذي استغاثه الإسرائيلي عليه ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: غمّ قَتْله خوفًا مِن عقاب الله تعالى بالمغفرة ومِن اقتصاص فرعونَ بالإنجاء عنه بالمهاجَرة إلى مَديَن. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: ابتليناك ابتلاءً أو فنونًا مِن الابتلاء على أنّه جَمْع "فَتْن"، أو فتنةً على ترك الاعتداد بـ"التاء"،

---

١ طه، ٣٨/٢٠.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.

٣ طه، ٣٨/٢٠.

٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٠/٢.

كـ"حُجوز" في "حُجْزة" و"بُدور" في "بَدْرة"، أي: خلّصناك مرّة بعد أخرى، وهو إجمال ما ناله في سفَره مِن الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلّاف / والمَشْي [٤٣و] راجلًا وفَقْد الزاد.

وقد رُوي أنّ سعيد بن جُبير سأل عنه ابن عبّاس رضي الله عنهم، فقال: خلّصناك مِن محنة بعد محنة، وُلد في عام كان يُقتل فيه الوِلْدان، فهذه فتنة يا بن جُبير، وألقتْه أمّه في البحر، وهمّ فرعونُ بقتله، وقتَل قِبْطيًا، وآجَر نفسه عشر سنين وضلّ الطريقَ وتفرّقت غنمُه في ليلة مظلمة.[١] وكان يقول عند كلّ واحدة: فهذه فتنة يا بن جُبير.

ولكنّ الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تُعدَّ إجارة نفسه وما بعدها مِن تلك الفُتون ضرورةَ أنّ المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مَدْينَ بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إذ لا ريبَ في أنّ الإجارة المذكورة وما بعدها ممّا وقَع بعد الوصول إليهم. وقد أشيرَ بذِكر لُبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العَشْر مِن فنون الشدائد والمكاره التي كلُّ واحد منها فتنة وأيُّ فتنة. ومَدْينُ بلدة شعيبٍ عليه السلام على ثماني مراحلَ مِن مصرَ.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أُونسَ فيه النار ووقع فيه النداء والحِوار، وفي كلمة التراخي إيذان بأنّ مجيئه عليه السلام كان بعد اللَّتيّا والتي[٢] مِن ضلال الطريق وتفرُّق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك.

﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: تقدير قدّرتُه لأن أكلِّمَك وأستنبئَك في وقت قد عيّنتُه لذلك، فما جئتَ إلّا على ذلك القدَر غيرَ مستقدِم ولا مستأخِر. وقيل: على مِقدار مِن الزمان يُوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس أربعين سنةً.[٣]

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦/٦٤-٧٠، في حديث جِدّ طويل، ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

٢ اللَّتيا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ / تشريف له عليه السلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكاية [٤٣ظ] التي هي تفصيلُ المرّة الأخرى التي وقعت قبل المرّة المحكيّة أوّلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[1] وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعونَ مؤيَّدًا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المِنن السابغة السابقة تأكيدًا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة. وهذا تمثيل لِما خوّله عزّ وعلا مِن الكرامة العظمى بتقريب المَلِك بعضَ خواصّه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة.

والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ونظيرَيه السابقين تمهيد لإفراد لفظ "النفس" اللائق بالمقام، فإنّه أدخَلُ في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص، أي: اصطفيتك[2] برسالاتي وبكلامي.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي: وليَذهبْ أخوك حسبما استدعيتَ. استئنافٌ مَسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع.

﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بمعجزاتي التي أرَيتُكَها مِن اليد والعصا فإنّهما وإن كانتا اثنتين لكن في كلّ منهما آيات شتّى، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣]، فإنّ انقلاب العصا حيوانًا آية، وكونَها ثعبانًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره آية أخرى، وسرعةَ حركته مع عِظَم جِرْمه آيةٌ أخرى، وكونَه مع ذلك مسخَّرًا له عليه السلام بحيث كان يُدخل يده في فمه فلا يضرّه آيةٌ أخرى، ثمّ انقلابُها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليد فإنّ بياضها في نفسه آيةٌ وشُعاعَها آيةٌ، ثمّ رجوعُها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى.

و"الباء" للمصاحبة لا للتعدية؛ إذ المراد ذهابهما إلى فرعونَ ملتبِسين بالآيات متمسِّكين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة، لا مجرّدُ إذهابها أو إيصالها إليه.

---

١ طه، ١٣/٢٠.

٢ ط س: اصطنعتك.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تفتُرا ولا تقصِرا، وقُرئ: "لَا تِنِيَا"[١] بكسر "التاء" للاتباع ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أي: بما يليق بي مِن الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إليّ. وقيل: المعنى لا تَنِيا في تبليغ رسالتي، فإنّ الذِّكر يقع على جميع العبادات، وهو أجلُّها وأعظمُها.[٢] وقيل: لا تنسَياني حيثما تقلّبتُما واستمِدّا به[٣] العون والتأييد، واعلما أنّ أمرًا مِن الأمور لا يتأتّى ولا يتسنّى إلّا بذِكري.[٤]

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ جمَعهما في صيغة أمْر الحاضر مع غَيبة هارونَ إذ ذاك للتغليب، / وكذا الحال في صيغة النهي. رُوي أنّه أوحيَ إلى هارونَ وهو بمصرَ أن يتلقّى موسى عليهما السلام. وقيل: سمِع بإقباله فتلقّاه.[٥] ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تعليل لموجَب الأمر. [٤٤و]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه، فإنّ تليين القول ممّا يكسِر سَوْرة عِناد العُتاة ويُليّن عريكة الطُّغاة. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا تُعنِّفا في قولكما».[٦] وقيل: القولُ اللّيّن مثل: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات، ٧٩/١٨-١٩]، فإنّها دعوة في صورة عَرْض ومَشورة.[٧] ويردّه ما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الآيتين [طه، ٢٠/٤٧]. وقيل: «كنّياه»،[٨] وكان له ثلاثُ كُنًى: أبو العبّاس وأبو الوليد وأبو مُرّة.[٩] وقيل: عِداه شبابًا لا يهرَم ويبقى له لذّة المَطعَم والمَشرَب والمَنكح ومُلكًا لا يزول إلا بالموت.[١٠] وقُرئ: "لَيْنًا".[١١]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

٣ وفي هامش م: أي: بذِكري.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩١.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٤.

٧ مرويّ عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩١.

٨ مرويّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ١٦/٧٥.

٩ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتُماه مِن ذِكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقابي. ومحلُّ الجملة النصب على الحال مِن ضمير التثنية، أي: فقولا له قولًا ليِّنًا راجين أن يتذكَّر أو يخشى، وكلمةُ ﴿أَوْ﴾ لمَنْع الخلوّ، أي: باشِرا الأمر مباشرةَ مَن يرجو ويطمع أن يُتِمَّر عمله ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه. وجدوى إرسالهما إليه مع العِلم بحاله إلزامُ الحجّة وقطعُ المَعذِرة.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ أُسندَ القول إليهما مع أنّ القائل حقيقةً هو موسى عليه السلام بطريق التغليب إيذانًا بأصالته في كلّ قول وفعل وتبعيّةِ هارونَ عليه السلام له في كلّ ما يأتي ويذَر. ويجوز أن يكون هارونُ قد قال ذلك بعد تلاقيهما، فحُكيَ ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٥١]، فإنّ هذا الخطاب قد حُكي لنا بصيغة الجَمْع مع أنّ كلًّا مِن المخاطَبين لم يخاطَب إلّا بطريق الانفراد ضرورةَ / استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب. [٤٤ظ]

﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: يعجَلَ علينا بالعقوبة ولا يصبِرَ إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة مِن "فرَط" إذا تقدّم، ومنه "الفارط" و"فرَس فارط": يسبِق الخيل، وقُرئ: "يُفْرَطَ"[1] مِن "أفرَطه" إذا حمَله على العجَلة، أي: نخاف أن يحمِله حامل مِن الاستكبار أو الخوف على المُلك أو غيرهما على المعاجَلة بالعقاب.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يزداد طغيانًا إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جرأته وقساوته. وإطلاقُه مِن حُسن الأدب. وإظهارُ كلمة ﴿أَن﴾ مع سَداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقّق الخوف مِن كلّ منهما.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وأبي نوفل وابن مسعود والأعمش وسلام وأناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال الناشئ مِن النظم الكريم، ولعلّ إسنادَ الفعل إلى ضمير الغَيبة للإشعار بانتقال الكلام مِن مَساق إلى مساق آخرَ، فإنّ ما قبله مِن الأفعال الواردة على صيغة التكلّم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٦٨]، فإنّ ما قبله أيضًا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لَا تَخَافَا﴾ما توهَّمتما مِن الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ تعليل لموجَب النهي ومزيدُ تسلية لهما. والمراد بالمعيّة كمال الحفظ والنُّصرة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: ما يجري بينكما وبينه مِن قول وفعل فأفعلُ في كلّ حال ما يليق بها مِن دَفْع ضُرّ وشرّ وجَلْب نَفْع وخير. ويجوز ألّا يُقدَّر شيء، على معنى أنّني حافظكما سميعًا بصيرًا، والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقد تمّ وبلغت النُّصرة غايتها.[1]

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ ۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾

﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ أُمِرا بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد ما أُمِرا بالذهاب إليه فلا تكرارَ، وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده. / ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أُمِرا بذلك تحقيقًا للحقّ مِن أوّل الأمر ليعرِف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه، وكذا التعرّض لربوبيّته تعالى له. [٤٥و]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ كونهما رسولَي ربّه ممّا يوجب إرسالهم معهما. والمراد بالإرسال إطلاقهم مِن الأَسْر والقَسْر وإخراجُهم مِن تحت يده العاديَة، لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ أي: بإبقائهم على ما كانوا عليه مِن العذاب فإنّهم كانوا تحت مَلَكة القِبْط يستخدمونهم

---

[1] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٠.

في الأعمال الصعبة الفادحة مِن الحَفْر ونَقْل الأحجار وغيرهما مِن الأمور الشاقّة، ويقتُلون ذكور أولادهم عامًا دون عام ويستخدمون نساءهم.

وتوسيطُ حُكم الإرسال بين بيان رسالتهما وبين ذِكر المجيء بآية دالّة على صحّتها لإظهار الاعتناء به مع ما فيه مِن تهوين الأمر على فرعونَ، فإنّ إرسالهم معهما مِن غير تعرُّض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقّة كما هو حُكم الرسالة عادةً ليس ممّا يشُقّ عليه كلَّ المشقّة، ولأنّ في بيان مجيء الآية نوعَ طُول كما ترى، فتأخيرُ ذلك عنه مُخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم. وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك دليل على أنّ تخليص المؤمنين عن الكفَرة أهمُّ مِن دعوتهم إلى الإيمان،[1] فكَلّا.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تقرير لِما تضمّنه الكلام السابق مِن دعوى الرسالة وتعليلٌ لوجوب الإرسال، فإنّ مجيئهما بالآية مِن جهته تعالى ممّا يحقِّق رسالتهما ويُقرِّرها ويوجب الامتثال بأمرهما. وإظهارُ اسم الربّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطَب لتأكيد ما ذُكر مِن التقرير والتعليل.

/ وتوحيد الآيةِ مع تعدّدها لأنّ المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيانُ [٤٥ظ]
تعدّد الحجّة، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء، ٣٠/٢٦]. وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء، ١٥٤/٢٦]، فالظاهر أنّ المراد بها آية مِن الآيات.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ المستتبع لسلامة الدارين مِن الله تعالى والملائكة وغيرهم مِن المسلمين ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحقّ، وفيه مِن ترغيبه في اتّباعهما على ألطف وجه ما لا يخفى.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا﴾ مِن جهة ربّنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أي: بآياته تعالى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن قَبولها، وفيه مِن التلطيف في الوعيد حيث لم يُصرَّح بحلول العذاب به ما لا مَزيد عليه.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٢.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ بعد ما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به. وإنّما طُوي ذِكره للإيجاز والإشعار بأنّهما كما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به مِن غير تلعثُم، وبأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى التصريح به.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لم يُضِف الربّ إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾[1] لغاية عتوّه ونهاية طُغيانه؛ بل أضافه إليهما لِما أنّ المرسِل لا بدّ أن يكون ربًّا للرسول، أو لأنّهما قد صرّحا بربوبيّته تعالى للكلّ بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ١٦/٢٦]، كما وقَع في سورة الشعراء.

والاقتصار ههنا على ذِكر ربوبيّته تعالى لفرعونَ لكفايته فيما هو المقصود. و"الفاء" لترتيب السؤال على ما سبق مِن كونهما رسولَي ربّهما، أي: إذا كنتما رسولَي ربّكما فأخبِرا مَن ربُّكما الذي أرسلكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لِما أنّه الأصل في الرسالة وهارون وزيره.

[٤٦و] وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لأنّه قد عرَف أنّ له عليه السلام / رُتّةً فأراد أن يُفحِمه،[2] فيردُّه ما شاهده منه عليه السلام مِن حُسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ. وأمّا قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣] فمِن غُلوّه في الخُبث والدَّعارة كما مرّ.[3]

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّنَا﴾ إمّا مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ خبرُه، أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته، وأيًّا ما كان فلم يُريدا بضمير المتكلِّم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين؛ بل جميعَ المخلوقات تحقيقًا للحقّ وردًّا عليه كما يُفصِح عنه ما في حيّز الصلة، أي: هو ربّنا الذي أعطى كلّ شيء مِن الأشياء خَلْقه، أي: صورتَه وشكله اللائق

---

١ كلاهما في طه، ٤٧/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١/٣.

٣ في تفسير طه، ٢٨/٢٠.

بما نِيط به مِن الخواصّ والمنافع، أو أعطى مخلوقاتِه كلَّ شيء تحتاج هي إليه وترتفِق به. وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به.

أو أعطى كلَّ حيوان نظيرَه في الخَلْق والصورة حيث زوّج الحصان بالحِجْر[1] والبعير بالناقة والرجل بالمرأة، ولم يزوِّج شيئًا مِن ذلك بخلاف جنسه. وقُرئ: "خَلَقَهُ"[2] على صيغة الماضي على أنّ الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه. وحَذْف المفعول الثاني إمّا للاقتصار على الأوّل، أي: كلَّ شيء خَلَقه الله تعالى لم يَحْرِمه مِن عطائه وإنعامه، أو للاختصار مِن كونه مَنْويًا مدلولًا عليه بقرينة الحال، أي: أعطى كلّ شيء خَلَقه تعالى ما يحتاج إليه.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرّفه كيف يَتوصّل إلى بقائه وكماله إمّا اختيارًا كما في الحيوانات أو طبعًا كما في الجمادات والقُوى الطبيعيّة النباتيّة والحيوانيّة، ولمّا كان الخَلْق الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدِّمًا على الهداية التي هي عبارة عن إيداع القُوى المحرِّكة والمدْرِكة في تلك الأجسام وُسِّط بينهما كلمة التراخي. / [٤٦ظ]

ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بيَّن أنّه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعِم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضّل، وضمَّنه أنّ إرساله تعالى إيّاه إلى الطاغية مِن جملة هداياته تعالى إيّاه بعد أن هداه إلى الحقّ بالهدايات التكوينيّة حيث ركّب فيه العقل وسائرَ المشاعر والآلات الظاهرةَ والباطنة.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لمّا شاهد اللعين ما نظَمه عليه السلام في سِلك

---

١ الحِجْر: الفرس الأنثى. لسان العرب لابن منظور، «حِجر».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك والأعمش والحسن وسلّام والرُّستمي عن نُصير عن الكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٩٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٩.

الاستدلال مِن البرهان النيّر على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقيّةُ مقالاته عليه السلام وبُطلانُ خرافات نفسه ظهورًا بيّنًا، أراد أن يصرِفه عليه السلام عن سَننه إلى ما لا يعنيه مِن الأمور التي لا تعلّق لها بالرسالة مِن الحكايات، ويشغَلَه عمّا هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلَّق بذلك إلى أن يدّعيَ بين يدي قومه نوعَ معرفة، فقال: ما حالُ القرون الماضية والأمَم الخالية، وماذا جرى عليهم مِن الحوادث المفصَّلة؟ فأجاب عليه السلام بأنّ العِلم بأحوالهم مفصّلةً ممّا لا ملابَسة له بمنصِب الرسالة وإنّما عِلمها عند الله عزّ وجلّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّه سأله عن حال مَن خلا مِن القرون وعن شقاء مَن شقيَ منهم وسعادة مَن سعِد،[1] فيأباه قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فإنّ معناه أنّه مِن الغيوب التي لا يعلمها إلّا الله تعالى، وإنّما أنا عبد لا أعلم منها إلّا ما علّمنيه مِن الأمور المتعلِّقة بما أُرسلتُ به. ولو كان المسئول عنه ما ذُكر مِن الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أنّ / مَن اتّبع الهدى منهم فقد سلِم ومَن تولّى [٤٧و] فقد عُذِّب، حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾[2] الآيتين.

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: مُثبَت في اللوح المحفوظ بتفاصيله. ويجوز أن يكون ذلك تمثيلًا لتمكُّنه وتقرُّره في عِلم الله عزّ وجلّ بما استحفظه العالِمُ، وقيّده بالكِتْبة،[3] كما يلوّح به قوله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يُخطِئ ابتداءً ولا يذهب عليه[4] بقاءً؛ بل هو ثابت أبدًا فإنّهما مُحالان عليه سبحانه، وهو على الأوّل لبيان أنّ إثباته في اللوح ليس لحاجته تعالى إليه في العِلم به ابتداءً أو بقاءً.

وإظهار ﴿رَبِّي﴾ في موقع الإضمار للتلذّذ بذِكره ولزيادة التقرير والإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ الربوبيّة ممّا يقتضي عدم الضلال والنسيان حتمًا، ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقريّ بديع، حيث كشف عن حقيقة الحقّ حجابَها مع أنّه لم يخرُج عمّا كان بصدَده مِن بيان شئونه تعالى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥١.

٢ طه، ٢٠/٤٧.

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٣.

٤ وفي هامش م: ذهب عليه: نسيَه. «منه».

ثم تخلّص إليه حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عزّ وجلّ لِما سيأتي مِن الالتفات: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ على أنّ الموصول إمّا مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: جعَلها لكم كالمهد تتمهّدونها أو ذات مَهْد وهو مصدر سُمّي به المفعول. وقُرئ: "مِهَادًا"،[1] وهو اسم لِما يُمهَد كالفِراش، أو جَمْع "مَهْد"، أي: جعل كلَّ موضع منها مَهْدًا لكلّ واحد منكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: حصّل لكم طرُقًا ووسَّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلُكونها مِن قُطْر إلى قُطْر لتقضُوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: بذلك الماء، وهو عطفٌ على ﴿أَنزَلَ﴾ داخل تحت الحكاية، وإنّما التُفت إلى التكلّم للتنبيه على ظهور ما فيه مِن الدلالة على كمال القُدرة والحكمة، والإيذان / بأنّه لا يتأتّى إلّا [٤٧ظ] مِن قادر مُطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتُذعِن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل، ٦٠/٢٧]. خلا أنّ ما قبل الالتفات هناك[2] صريحُ كلامه تعالى، وأمّا ههنا فحكاية عنه تعالى.

وجعلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ هو المحكيَّ مع كون ما قبله كلامَ موسى عليه السلام خلافُ الظاهر، مع أنّه يفوّت حينئذ الالتفات لِعدم اتّحاد المتكلّم.

﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافًا سُمِّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿مِن نَّبَاتٍ﴾ بيان أو صفة لـ﴿أَزْوَاجًا﴾، أي: كائنةً مِن نبات. وكذا قوله تعالى: ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرِّقة جَمْع "شتيت". ويجوز أن يكون صفةً لـ﴿نَبَاتٍ﴾ لِما أنّه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، يعني أنّها شتّى مختلفةٌ في الطعم والرائحة

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

[2] وفي هامش م: أي: في الآيتين. «منه».

والشكل والنفع، بعضُها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضُها للبهائم، فإنّ مِن تمام نعمته تعالى أنّ أرزاق عباده لمّا كان تحصُّلها بعمَل الأنعام جعَل علَفها ممّا يفضُل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعامًا لهم.[1]

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على إرادة القول، أي: أخرجنا منها أصناف النبات قائلين: كلوا وارعَوا أنعامكم، أي: مُعِدِّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن شئونه تعالى وأفعاله، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رُتبته وبُعْد منزلته في الكمال. والتنكير في قوله تعالى: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةً جليلة واضحة الدلالة على / شئون الله تعالى [٤٨و] في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحّة نبوّة موسى وهارونَ عليهما السلام.

﴿لِأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع "نُهْية" سُمّي بها العقل لنهيه عن اتّباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سُمّي بـ"العقل" و"الحِجْر" لعَقْله وحَجْره عن ذلك، أي: لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي مِن جملتها ما يدّعيه الطاغية وتقبله منه فئته الباغية. وتخصيص كونها آياتٍ بهم مع أنّها آيات للعالمين باعتبار أنّهم المنتفعون بها.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ أي: في ضمن خَلْق أبيكم آدمَ عليه السلام منها، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظٌّ مِن خَلْقه عليه السلام؛ إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه السلام؛ بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجَريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام منها خلقًا للكلّ منها.

وقيل: المعنى خلقنا أبدانكم مِن النُطفة المتولِّدة مِن الأغذية المتولِّدة مِن الأرض بوسائطَ. وقيل: إنّ المَلَك الموكّل بالرَّحِم لَيأخذ مِن تُربة المكان الذي يُدفن فيه المولود فيُبدِّدها على النطفة فيُخلَق مِن التراب والنُطفة.[2]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء. وإيثارُ كلمة "في" على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار المديد فيها. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتّتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة وردّ الأرواح إليها. وكونُ هذا الإخراج تارةً أخرى باعتبار أنّ خَلْقهم مِن الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية. و"التارة" في الأصل اسم لـ"الثَّوْر" الواحد وهو الجرَيان، ثمّ أُطلِق على كل فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات المتجدِّدة كما مرّ في "المرّة".[1]

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ حكاية إجماليّة / لِما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعونَ إثرَ حكاية ما ذكّره عليه السلام بجلائل نَعمائه الداعية له إلى قَبول الحقّ والانقياد له. وتصديرُها بالقسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها. وإسنادُ الإراءة إلى نون العظمة نظرًا إلى الحقيقة لا إلى موسى نظرًا إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة والعناد، أي: وبالله لقد بصّرنا فرعونَ أو عرّفناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف، ١٠٦/٧-١٠٨]. [٤٨ظ]

وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما مِن بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، حسبما بُيّن في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه، ٤٢/٢٠]. وقد ظهر عند فرعونَ أمور أُخَرُ كلّ واحد منها داهية دَهْياء:

فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقاها انقلب ثعبانًا أشعَرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضَع لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر

---

[1] في تفسير طه، ٣٧/٢٠.

وتوجُّه نحوَ فرعونَ، فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحِمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه، فصاح فرعونُ: يا موسى أَنشُدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.

ورُوي أنّها انقلبت حيّة ارتفعت في السماء قدرَ مِيل، ثمّ انحطّت مُقبلة نحو فرعونَ، وجعلتْ تقول: يا موسى مُرْني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك... إلخ. ونزَع يديه مِن جيبه فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيًا خارجًا عن حدود العادات قد غلَب شعاعُه شعاع الشمس يجتمع عليه النظّارة تعجّبًا مِن أمره.[1]

ففي تضاعيف كلّ مِن الآيتين آيات جمّة لكنّها لمّا كانت غيرَ مذكورة صراحة أُكّدت بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ كأنّه قيل: أريناه آيَتينا / بجميع مُستتبَعاتهما [٤٩و] وتفاصيلهما قصدًا إلى بيان أنّه لم يبقَ له في ذلك عذر ما ولا مساغَ لعدّ بقيّة الآيات التسع منها لِما أنّها إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلَب السحَرة على مهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في تفسير سورة الأعراف.[2]

ولا ريبَ في أنّ أمْر السحَرة مترقّب بعدُ، وأبعدُ مِن ذلك أن يُعدّ منها ما جُعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان مِن فَلْق البحر وما ظهَر بعد مهلِكه مِن الآيات الظاهرة لبني إسرائيل، مِن نَتْق الجبل والحجَر سواء أريدَ به الحجَر الذي فرَّ بثوبه أو الذي انفجرت منه العيون.

وكذا أن يُعدّ منها الآيات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام بناءً على أنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ في حُكم إظهارها بين يديه وإراءتِه إيّاها لاستحالة الكذِب عليه عليه السلام، فإنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ ممّا لم يجْرِ ذِكره ههنا، على أنّ ما سيأتي مِن حَمْل ما أظهره عليه السلام على السِّحر والتصدي للمعارضة بالمِثل يأباه إباءً بيّنًا، وينطِق بأنّ المراد بها ما ذكرناه قطعًا. ولولا ذلك لجاز جَعْل ما فصّله عليه السلام مِن أفعاله تعالى الدالّة على اختصاصه بالربوبيّة وأحكامها مِن جملة الآيات.

---

١ هذه الأخبار في الكشّاف للزمخشري، ١٠٤/٢

٢ في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها. (الأعراف، ١٠٧/٧-١٠٨).

﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى عليه السلام مِن غير تردّد وتأخير مع ما شاهده في يده مِن الشواهد الناطقة بصِدقه جحودًا وعِنادًا. ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمانَ والطاعة لعتوّه واستكباره. وقيل: كذّب بالآيات جميعًا وأبى أن يقبل شيئًا منها أو أبى قَبول الحقّ.[1]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة تكذيبه وإبائه، و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه وادِّعاء أنّه أمر مُحال. والمجيء إمّا على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدّي له، أي: أجئتنا مِن مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنا، أو أقبلتَ علينا لتُخرِجنا مِن مصرَ بما أظهرْتَه / مِن السحر، فإنّ ذلك ممّا لا يصدُر عن العاقل لكونه مِن باب محاولة المُحال. [٤٩ظ]

وإنّما قاله لحَمْل قومِه على غاية المَقْت لموسى عليه السلام بإبراز أنّ مراده عليه السلام ليس مجرّدَ إنجاء بني إسرائيلَ مِن أيديهم؛ بل إخراجُ القِبط مِن وطنهم وحيازةُ أموالهم وأملاكهم بالكلّيّة حتّى لا يتوجّه إلى اتّباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمّى ما أظهره عليه السلام مِن المعجزة الباهرة سِحرًا لتجسيرهم على المقابلة.

ثمّ ادّعى أنّه يعارضه بمِثل ما أتى به عليه السلام فقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ "الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و"اللام" جوابُ قَسَم محذوف، كأنّه قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينّك بسِحر مِثل سِحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: وعدًا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ فإنّه المناسب لا المكان والزمان، أي: لا نُخلف ذلك الوعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾.

وإنّما فوّض اللعين أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضَعْف القلب وضِيقِ المجال وإظهار الجلادة وإراءةِ أنّه متمكِّن مِن تهيئة أسباب المعارضة وترتيبِ آلات المغالبة طال الأمد أم قصُر، كما أنّ تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيطَ كلمة النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف، وأنّ عدم إخلافه لا يوجب عدم إخلافه عليه السلام، ولذلك أُكِّد النفي بتكرير حرفه.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٣.

وانتصاب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل يدلّ عليه المصدر لا به، فإنّه موصوف أو بأنّه بدل مِن ﴿مَوْعِدًا﴾ على تقدير مكان مضاف إليه، فحينئذ يكون مطابقةُ الجواب في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ مِن حيث المعنى، فإنّ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يدلّ على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ، أو بإضمار مثلَ "مكانُ موعدِكم مكانُ يوم الزينة" كما هو على الأوّل، أو "وعدُكم وعدُ يوم الزينة". وقُرئ: "يَوْمَ"[1] بالنصب، وهو ظاهر في أنّ المراد به المصدر. ومعنى ﴿سُوًى﴾ منتصَفًا يستوي مسافته إلينا وإليك / وهو في النعت كقولهم: "قوم عِدًى" في الشذوذ. وقُرئ بكسر "السين".[2] [٥٠و]

قيل: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يوم عاشوراءَ، أو يوم النَّيْروز، أو يوم عيد كان لهم في كلّ عام.[3] وإنّما خصّه عليه السلام بالتعيين لإظهار كمال قوّته وكونه على ثِقَة مِن أمره وعدم مبالاته بهم لِما أنّ ذلك اليوم وقتُ ظهور غاية شوكتهم، وليكون ظهور الحقّ وزهوق الباطل في يوم مشهود على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك فيما بين كلّ حاضر وباد.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطفٌ على ﴿يَوْمُ﴾ أو ﴿ٱلزِّينَةِ﴾، وقُرئ على البناء للفاعل بـ"التاء"[4] على خطاب فرعونَ، وبـ"الياء"[5] على أنّ الضمير له على سَنن الملوك أو لليوم.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف عن المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: ما يُكادُ به مِن السحَرة وأدواتِهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: الموعدَ ومعه ما جمعه مِن كيده. وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنّه لم يسارع إليه؛ بل أتاه بعد لَأْي وتلَعْثُم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة وقتادة والجَحدري وهُبيرة والزّعفراني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٨؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٣١.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

٣ هذه الأقوال في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والجَحدري وأبي نَهيك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٨؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٣١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والكَفَرتوثي والأديب، والعنبري عن أبي بكر. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٣١.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾... إلخ، بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال يقضي بأنّ المترقَّب من أحواله عليه السلام حينئذ والمحتاجَ إلى السؤال والبيان ليس إلّا ما صدر عنه عليه السلام مِن الكلام، وأمّا إتيانه أوّلًا فأمرٌ محقّق غنيّ عن التصريح به، كأنّه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعونَ بمَن جمعهم مِن السحَرة؟ فقيل: قال لهم بطريق النصيحة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياتِه التي ستظهر على يدي سِحرًا كما فعل فرعونُ.

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يستأصلكم بسببه ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائل لا يُقادَر قَدْره. وقُرئ: "يَسْحَتَكُمْ"[1] مِن الثلاثي على لغة أهل الحِجاز، والإسحاتُ لغة بني تميم ونجد. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أي: على الله تعالى / كائنًا مَن كان بأيّ وجه كان، فيدخل فيه الافتراء المنهيّ عنه دخولًا أوّليًّا، أو وقد خاب فرعونُ المفتري فلا تكونوا مثلَه في الخَيبة. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبلها. [٥٠ظ]

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

﴿فَتَنَازَعُوا﴾ أي: السحَرة حين سمعوا كلامه عليه السلام، كأنّ ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي أريدَ منهم مِن مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفيّة المعارضة وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي: مِن موسى عليه السلام لئلّا يقِفَ عليه فيدافعَه.

وكان نجواهم ما نطَق به قوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾ أي: بطريق التناجي والإسرار: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾... إلى آخره،[2] فإنّه تفسير له ونتيجة لتنازُعهم وخلاصةُ ما استقرّت عليه آراؤهم بعد التناظُر والتشاوُر.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ورَوح وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

٢ هذا الوجه في الذي تناجوا به مرويّ عن السُّدّي ووهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ١٦/٩٦-٩٧، وسيذكر المؤلِّف قريبًا وجوهًا أخرى لذلك.

و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة مِن "إنّ" قد أهمِلت عن العمل و"اللام" فارقة. وقُرئ بتشديد نون ﴿هَٰذَانِ﴾.[١] وقيل: هي نافيةٌ و"اللام" بمعنى "إلّا"، أي: "ما هذان إلّا ساحران".[٢] وقُرئ: "إنّ" بالتشديد،[٣] و﴿هَٰذَانِ﴾ اسمُها على لغة بَلحارث بن كعب، فإنّهم يُعربون التثنيةَ تقديرًا. وقيل: اسمها ضمير الشأن المحذوف و﴿هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾ خبرها. وقيل: "إنّ" بمعنى "نَعَمْ" وما بعدها جملة مِن مبتدأ وخبر، وفيهما أنّ "اللام" لا تدخُل خبرَ المبتدأ. وقيل: أصله "إنّه هذان لهما ساحران" فحُذف الضمير، وفيه أنّ المؤكَّد بـ"اللام" لا يليق به الحذف،[٤] وقُرئ: "إِنَّ هَٰذَيْنَ لَسَاحِرَانِ"[٥] وهي قراءة واضحة.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصرَ بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه مِن قبل ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي: بمَذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما، يريدون به ما كان عليه قوم فرعونَ، لا طريقةَ السِّحر، / فإنّهم ما كانوا يعتقدونه دِينًا. [٥١و]

وقيل: أرادوا أهلَ طريقتكم وهم بنو إسرائيلَ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾،[٦] وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم.[٧] ويأباه أنّ إخراجهم مِن أرضهم إنّما يكون بالاستيلاء عليها تمكُّنًا وتصرُّفًا، فكيف يُتصوَّر حينئذ نَقْل بني إسرائيلَ إلى الشام؟

وحملُ الإخراج على إخراج بني إسرائيلَ منها مع بقاء قوم فرعونَ على حالهم ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.[٨] على أنّ هذه المقالةَ منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمُناصَبة، فلا بدّ أن يكون الإنذار والتحذير بأشدّ المكاره وأشقّها عليهم، ولا ريبَ في أنّ إخراج بني إسرائيلَ مِن بينهم والذهابَ بهم إلى الشام وهو آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور. وقيل:

---

١ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٢ القول في **اللباب** لابن عادل، ٢٩٥/١٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٤ هذه الأوجه في **اللباب** لابن عادل، ٢٩٦/١٣-٢٩٨؛ وبعضها في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥/٣.
٥ قرأ بها أبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٦ طه، ٤٧/٢٠.
٧ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥/٣.
٨ القول في **اللباب** لابن عادل، ٣٠٤/١٣.

الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لِما أنّهم قُدوة لغيرهم.[١] ولا يخفى أنّ تخصيص الإذهاب بهم ممّا لا مزيّةَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدّمات، و"الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذُكر مِن كونهما ساحرَين يريدان بكم ما ذُكر مِن الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلّف عنه واحد منكم وارمُوا عن قوس واحدة. وقُرئ: "فَاجْمَعُوْا"[٢] مِن الجمع، ويعضده قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾،[٣] أي: فاجْمَعوا أدواتِ سِحركم ورتِّبوها كما ينبغي. ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: مصطفّين، أُمروا بذلك لأنّه أهيَب في صدور الرائين وأدخلُ في استجلاب الرهبة مِن المشاهِدين.

قيل: كانوا سبعين ألفًا مع كلّ منهم حبل وعصًا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة.[٤] وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا،[٥] اثنان مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيلَ. وقيل: تِسعَمائة: ثلاثمائة مِن الفُرس، وثلاثمائة مِن الروم، وثلاثمائة مِن الإسكندريّة.[٦] وقيل: خمسةَ عشرَ ألفًا.[٧] وقيل: / بضعةً وثلاثين ألفًا.[٨] والله أعلم. [٥١ظ]

ولعلّ الموعدَ كان مكانًا متّسعًا خاطبهم موسى عليه السلام بما ذُكر في قُطر مِن أقطاره وتنازعوا أمرهم في قُطر آخرَ منه، ثمّ أُمروا بأن يأتوا وسَطه على الوجه المذكور.

وقد فُسّر الصفّ بالمصلّى لاجتماع الناسِ فيه في الأعياد والصلوات.[٩] ووجهُ صِحّته أن يكون علَمًا لموضع معيَّن مِن المكان الموعود.[١٠] وأمّا إرادة مصلًّى مِن المصلّيات بعد تعيّن المكان الموعود،[١١] فلا مساغَ لها قطعًا.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٣ طه، ٦٠/٢٠.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٥.
٦ مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ١٠٩/١٦.
٧ مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ١٠٨/١٦.
٨ مرويّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ١٠٧/١٦-١٠٨.
٩ هو تفسير أبي عبيدة في مجاز القرآن، ٢٣/٢، ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٣.
١٠ هذا التوجيه ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٣.
١١ هذا الوجه مذكورٌ في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ اعتراض تذييلي مِن قِبلهم مؤكِّد لِما قبله مِن الأمرين، أي: قد فاز بالمطلوب مَن غلَب، يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعونُ مِن الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء، ٤٢/٢٦]، وبمَن غلَب أنفسَهم جميعًا، على طريقة قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، ٤٤/٢٦]، أو مَن غلَب منهم حثًّا لهم على بذل المجهود في المغالبة. هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم.

وقد قيل: كان نجواهم أن قالوا حين سمِعوا مقالة موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر.[١] وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غَلَبنا موسى اتّبعناه.[٢] وقيل: كان ذلك قولَهم: إن كان ساحرًا فسنغلِبه وإن كان مِن السماء فله أمرٌ.[٣] فيكون إسرارهم حينئذ مِن فرعونَ ومَلئه، ويُحمل قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾... إلخ،[٤] على أنّهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثمّ رجعوا عن ذلك بعد التنازُع والتناظُر، واستقرّت آراؤهم على ذلك، وأبَوا إلّا المناصَبة للمعارضة.

وأمّا جعلُ ضمير ﴿قَالُوٓا۟﴾ لفرعونَ وملَئه،[٥] على أنّهم قالوا ذلك للسحَرة ردًّا لهم عن الاختلاف، وأمروهم بالإجماع والإزماع وإظهارِ الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفاف، فمُخِلٌّ بجزالة النظم الكريم، كما يشهد به الذوق السليم.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية ما جرى بين السحَرة مِن المقاولة، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وإنّما لم يُتعرَّض لإجماعهم وإتيانهم بطريق الاصطفاف إشعارًا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان.

---

١ مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٩٦/١٦.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣؛ وعن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٥؛ وهو بلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

٣ مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٩٥/١٦-٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.

٤ في طه، ٦٣/٢٠، وذكر المؤلِّف ثمّة أنّ هذا كان هو ما تناجَوا به.

٥ وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ أي: ما تُلقيه أوّلًا، على أنّ المفعول محذوف لظهوره، أو تفعل الإلقاءَ / أوّلًا على أنّ الفعل منزّل منزلةَ اللازم. [٥٢و]

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ ما يُلقيه أو أوّلَ مَن فعل[1] الإلقاءَ، خيّروه عليه السلام بما ذُكر مراعاة للأدب لِما رأوا منه عليه السلام ما رأوا مِن مخائل الخير ورزانة الرأي، وإظهارًا للجلادة بإراءة أنّه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير. و﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بخبريّة مبتدأ محذوف، أي: اختر إلقاءَك أوّلًا أو إلقاءَنا، أو الأمرُ إمّا إلقاؤك أو إلقاؤنا.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف ناشئ مِن حكاية تخيير السحَرة إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ أنتم أوّلًا مقابلةً للأدب بأحسنَ مِن أدبهم، حيث بتّ القول بإلقائهم أوّلًا، وإظهارًا لعدم المبالاة بسِحرهم ومساعدةً لِما أوهَموا مِن المَيْل إلى البدء، وليُبرِزوا ما معهم ويستفرِغوا أقصى جُهدهم ويستنفدوا قُصارى وُسعهم، ثمّ يُظهر الله عزّ وجلّ سلطانه فيقذف بالحقّ على الباطل فيدمَغه، لِما علِم أنّ ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون مِن مكائد السحر.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ "الفاء" فصيحة معرِبة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[2] ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فألقَوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ﴾، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنّها أيضًا ظرفيّة تستدعي متعلَّقًا ينصِبها وجملةً تُضاف إليها، لكنّها خُصّت بكون متعلَّقِها فعلَ المفاجأة، والجملةُ ابتدائيّة، والمعنى فألقَوا ففاجأ موسى عليه السلام وقت أن يُخيَّل إليه سعيُ حبالهم وعِصيّهم مِن سحرهم، وذلك أنّهم كانوا لطّخوها بالزئبق فلمّا ضربت عليها الشمس / اضطربت واهتزّت فخُيّل إليه أنّها تتحرّك. [٥٢ظ]

---

[1] س: يفعل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] م ط س: فقلنا.

وقُرئ: "تُخَيَّلُ"[1] بـ"التاء" على إسناده إلى ضمير الحبال والعِصيّ وإبدالِ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ منه بدلَ اشتمال، وقُرئ: "نُخَيَّلُ"[2] بإسناده إليه تعالى، وقُرئ: "تَخَيَّلُ"[3] بحذف إحدى التاءين مِن "تتخيّل".

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر فيها بعضَ خوف مِن مفاجأته بمقتضى البشريّة المجبولة على النُّفْرة مِن الحيّات والاحتراز عن ضررها المعتاد مِن اللسْع ونحوه. وقيل: مِن أن يُخالِج الناس شكّ فلا يتَّبعوه.[4] وليس بذاك كما ستعرفه. وتأخيرُ الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ أي: ما توهَّمتَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجِبه النهيُ مِن الانتهاء عن الخوف، وتقريرٌ لغلَبته على أبلغ وجه وآكَده، كما يُعرب عنه الاستئناف وحرفُ التحقيق وتكرير الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العُلوّ المنبئ عن الغلَبة الظاهرة وصيغةُ التفضيل.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك كما وقع في سورة الأعراف،[5] وإنّما أُوثر الإبهام تهويلًا لأمرها وتفخيمًا لشأنها وإيذانًا بأنّها ليست مِن جنس العِصيّ المعهودة المستتبِعة للآثار المعتادة؛ بل خارجةٌ عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكُنْه مستتبِعة لآثار غريبة. وعدمُ مراعاة هذه النُّكتة عند حكاية الأمر في موضع آخرَ لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المَحكيّ.

---

١ قرأ بها ابن ذكوان ورَوح. **النشر** لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة وابن نِمس عن أبي حَيْوَة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٣٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال. **اللباب** ابن عادل، ٣١٢/١٣.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦/٣.

٥ في الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة منها.

هذا وحملُ الإبهام على التحقير بأن يراد لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصيّهم وألقِ العُوَيد الذي في يدك، فإنّه بقدرة الله تعالى يلقَفها مع وَحدته وكثرتها وصِغره وعِظَمها،[1] يأباه ظهور حالها فيما مرّ مرّتين، على أنّ ذلك / المعنى [٥٣و] إنّما يليق بما لو فعلتْ العصا ما فعلتْ وهي على هيئته الأصليّة، وقد كان منها ما كان.

وقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ بالجزم جوابًا للأمر مِن "لَقِفه" إذا ابتلعه والتقمه بسرعة. والتأنيث لكون ﴿مَا﴾ عبارةً عن العصا، أي: تبتلع ما صنعوه مِن الحبال والعِصيّ التي خُيّل إليك سعيَها وخِفّتَها. والتعبير عنها بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير.

وقُرئ: "تَلَقَّفْ"[2] بتشديد "القاف" وإسقاط إحدى التاءين مِن "تتلقَّف"، وقُرئ بالرفع[3] على الحال أو الاستئناف، والجملةُ الأمريّة معطوفة على النهي متمِّمة بما في حيّزها لتعليل موجَبه ببيان كيفيّة غلبته عليه السلام وعلوّه، فإنّ ابتلاع عصاه لأباطيلهم التي منها أوجسَ في نفسه ما أوجس ممّا يقلَع مادّته بالكلّيّة. وهذا كما ترى صريح في أنّ خوفه عليه السلام لم يكن ممّا ذُكر مِن مُخالجة الشكّ للناس وعدم اتّباعهم له عليه السلام، وإلّا لعُلّل بما يُزيله مِن الوعد بما يوجب إيمانهم واتّباعهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾... إلخ، تعليل لقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، و﴿مَا﴾ إمّا موصولة أو موصوفة، أي: إنّ الذي صنعوه أو إنّ شيئًا صنعوه. ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بالرفع على أنّه[4] خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: كيدُ جنسِ الساحر، وتنكيرُه للتوسّل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير. وقُرئ بالنصب[5] على أنّه مفعولُ ﴿صَنَعُوٓاْ﴾

---

١ هذا الوجه مذكور مع الوجه السابق في الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٣.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام وأبو بكر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٣ قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٤ س - على أنّه.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٣٥.

و﴿مَا﴾ كافّة، وقُرئ: "كَيْدُ سِحْرٍ"[1] على أنّ الإضافة للبيان، كما في "عِلمُ فقهٍ"، أو على معنى "ذي سِحْر"، أو على تسمية الساحر "سِحْرًا" مبالغةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: حيث كان وأين أقبل، مِن تمام التعليل. وعدمُ التعرّض لشأن العصا وكونها معجزةً إلهيّة / مع ما في ذلك مِن تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها. [٥٣ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ كما سلف فصيحة معرِبة عن محذوفَين ينساق إليهما النظم الكريم غنيّين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردُّد موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالةِ عدم وقوع اللَّقْف الموعود، أي: فألقاه[2] عليه السلام فوقَع ما وقَع مِن اللَّقْف ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِما تيقّنوا أنّ ذلك ليس مِن باب السِّحر، وإنّما هي آية مِن آيات الله عزّ وجلّ.

رُوي أنّ رئيسهم قال: كنّا نغلِب الناس وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سِحرًا فأين ما ألقَيناه مِن الآلات؟[3] فاستَدلّ بتغيُّر أحوال الأجسام على الصانع القادر العالِم، وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحّة رسالتِه، لا جرمَ ألقاهم بما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتَوا بما هو غاية الخضوع.

قيل: لم يرفعوا رءوسهم حتّى رأوا الجنّة والنار والثواب والعقاب. وعن عِكرمةَ لمّا خرّوا سجّدًا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنّة،[4] ولا ينافيه قولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾... إلخ،[5] لأنّ كون تلك المنازلِ منازلَهم باعتبار صدورِ هذا القول عنهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما مرّ غيرَ مرّة. ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ تأخيرُ موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل. وقد جُوّز أن يكون ترتيب كلامهم أيضًا هكذا، إمّا لِكبَر سنّ هارونَ عليه السلام وإمّا للمبالغة في الاحتراز عن التوهّم الباطلِ مِن جهة فرعونَ وقومِه، حيث كان فرعونُ ربّى موسى عليه السلام في صِغَره،

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٢ وفي هامش م: أي: ما في يمينه. «منه».

٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ٣١٧/١٣.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٧/٣.

٥ سيأتي في طه، ٧٣/٢٠.

فلو قدّموا موسى عليه السلام لربّما توهَّم اللعين وقومه مِن أوّل الأمر أنّ مرادهم فرعونُ.[1]

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ للسحَرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسى عليه السلام، و"اللام" لتضمين الفعل معنى الاتّباع. وقُرئ / على الاستفهام التوبيخي.[2] ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: مِن غير أن آذَن لكم في الإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]، لا أنّ إذنه لهم في ذلك واقع بعده أو متوقَّع. [٥٤و]

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: في فنّكم وأعلمُكم به وأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتُم أو فعلّمكم شيئًا دون شيء فلذلك غلبكم. وهذه شُبهة زوّرها اللعين وألقاها على قومه، وأراهم أنّ أَمْر الإيمان منُوط بإذنه فلمّا كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتدًّا به وأنّهم مِن تلامذته عليه السلام، فلا عبرةَ بما أظهره كما لا عبرةَ بما أظهروه، وذلك لِما اعتراه مِن الخوف مِن اقتداء الناس بالسحَرة في الإيمان بالله تعالى.

ثمّ أقبل عليهم بالوعيد المؤكَّد حيث قال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ أي: فوالله لأُقطعنّ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليدَ اليمنى والرِّجلَ اليسرى. و﴿مِّنْ﴾ ابتدائيّة، كأنّ القطع ابتدأ مِن مخالفة العُضو العضوَ، فإنّ المبتدئ مِن المعروض مبتدئ مِن العارض أيضًا. وهي مع مجرورها في حيّز النصب على الحاليّة، أي: لأقطعنّها مختلفاتٍ. وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالةَ بتعيين كيفيّته المعهودة في باب السياسة، لا لأنّها أفظعُ مِن غيرها.

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: عليها. وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا تشبيهًا لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتمِل عليه. قالوا: هو أوّلُ مَن صَلَب. وصيغة التفعيل في الفعلَين للتكثير، وقد قُرئا بالتخفيف.[1]

﴿وَلَتَعْلَمِنَّ أَيُّنَا﴾ يريد به نفسه وموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾. و"اللام" مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى،[2] وهذا إمّا لقصد توضيع موسى عليه السلام والهُزْء به؛ لأنه لم يكن مِن التعذيب في شيء، وإمّا لإراءة أنّ إيمانهم لم يكن عن مشاهدة / المعجزة ومعاينة البرهان؛ [٥٤ظ] بل كان عن خوف مِن قِبَل موسى عليه السلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعِصيِّهم، فخافوا على أنفسهم أيضًا. وقيل: يريد به ربَّ موسى الذي آمنوا به بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.[3]

﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوَم.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ غيرَ مكترثين بوعيده ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ مِن الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن المعجزات الظاهرة، فإنّ ما ظهر بيده عليه السلام مِن العصا كان مشتملًا على معجزات جمّة، كما مرّ تحقيقه فيما سلف، فإنّهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وسائرَ المخلوقات، وهو عطفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، وتأخيرُه لأنّ ما في ضمنه آية عقليّة نظريّة، وما شاهدوه آية حسيّة ظاهرة. وإيراده تعالى بعنوان فاطريّته تعالى لهم للإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ خالقيّته تعالى لهم وكونَ فرعونَ مِن جملة مخلوقاته ممّا يوجب عدمَ إيثارهم له

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٧.

٣ في الآية السابقة. والقول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٧.

عليه سبحانه وتعالى. وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعونَ بقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.[1]

وقيل: هو قسَم محذوفُ الجواب لدلالة المذكور عليه، أي: وحقِّ الذي فطرنا لا نؤثِرك... إلخ. ولا مساغَ لكون المذكور جوابًا له عند مَن يجوِّز تقديم الجواب أيضًا لِما أنّ القسَم لا يجاب بـ"لن" إلّا على شذوذ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾... إلخ،[2] أي: فاصنع ما أنت صانعه، أو فاحكُم ما أنت حاكم به. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد ممّا سبق مِن الأمر بالقضاء، أي: إنّما تصنع ما تهواه أو تحكُم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسبُ، وما لنا مِن رغبة في عَذْبها ولا رهبة مِن عذابها.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ التي اقترفنا فيها مِن الكفر والمعاصي ولا يؤاخذَنا بها في الدار الآخرة، / لا ليُمتّعنا بتلك الحياة الفانية حتّى نتأثّر بما [٥٥و] أوعدتَنا به مِن القَطع والصَّلب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ عطفٌ على ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾، أي: ويغفرَ لنا السِّحر الذي عمِلناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيّانا مِن المدائن القاصية، خصّوه بالذِّكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نُفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكرُ الإكراه للإيذان بأنّه ممّا يجب أن يُفرَد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوعُ اعتذار لاستجلاب المغفرة.

وقيل: أرادوا الإكراه على تعلّم السِّحر حيث رُوي أنّ رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين: اثنان منهم مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيل، وكان فرعونُ أكرَههم على تعلّم السِّحر. وقيل: إنّه أكرَههم على المعارضة حيث رُوي أنّهم قالوا لفرعونَ:

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في الآية السابقة.

أرِنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرُسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسِحر فإنّ الساحر إذا نام بطَل سِحره، فأبى إلّا أن يُعارضوه.[1] ويأباه تصدّيهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يُعرب عنه قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٤١]، وقولُهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٤٤].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: في حدّ ذاته، وهو ناظر إلى قولهم: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾.[2] ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: جزاءً، ثوابًا كان أو عذابًا، أو خيرٌ ثوابًا وأبقى عذابًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ إلى آخر الشرطيّتين تعليلٌ مِن جهتهم لكونه تعالى خيرًا وأبقى جزاءً، وتحقيقٌ له وإبطالٌ لما ادّعاه فرعونُ. وتصديرُهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما؛ لأنّ مناط وَضْع الضمير موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغْنية عن ذِكره، مع ما فيه مِن / زيادة التقرير، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه [٥٥ظ] مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خطَر، فيبقى الذِّهن مترقّبًا لِما يعقُبه فيتمكّن عند وروده له فضلَ تمكُّن، كأنّه قيل: إنّ الشأن الخطيرَ هذا، أي: قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه، وهذا تحقيقٌ لكون عذابه أبقى، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى وبما جاء مِن عنده مِن المعجزات التي مِن جملتها ما شاهدناه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ "الصالحة" كـ"الحسنة" جارية مَجرى الاسم، ولذلك لا تُذكر غالبًا مع الموصوف، وهي: كلّ ما استقام مِن الأعمال بدليل العقل والنقل.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلين السابقَين باعتبار لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانِهم وأعمالهم الصالحة ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل الرفيعة. وليس فيه

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨.

[2] في الآية السابقة.

ما يدلّ على عدم اعتبار الإيمان المجرّد عن العمل الصالح في استتباع الثواب، لأنّ ما نِيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقًا، وهل التشاجر إلّا فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل مِن ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾[1] أو بيان، وقد مرّ أنّ عَدْنًا عَلَمٌ لمعنى الإقامة، أو لأرض الجنّة، فقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حال مِن "الجنات"، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمُ﴾، والعامل معنى الاستقرار أو الإشارة.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أتيحَ لهم مِن الفوز بما ذُكر مِن الدرجات العُلى، ومعنى البُعد لِما مرّ مِن التفخيم. ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن دنَس الكُفر والمعاصي بما ذُكر مِن الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقديم ذِكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدّيّة عذابه ودوامه ردًّا على ما ادّعاه فرعونُ بقوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.[2] هذا وقد قيل: هذه الآيات الثلاث ابتداءُ كلامٍ مِن الله عزّ وجلّ.[3] قالوا: ليس في القرآن أنّ فرعونَ فعَل بأولئك المؤمنين ما أوعَدهم به، ولم يثبُت في الأخبار.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حكاية إجماليّة لِما انتهى إليه أمر فرعونَ وقومه، وقد طُوي في البين ذِكرُ ما جرى عليهم مِن الآيات المفصّلات الظاهرة على يد موسى عليه السلام بعد ما غلَب السَّحرةَ في نحو مِن عشرين سنةً، حسبما فُصّل في سورة الأعراف.[4] وتصديرها بالقسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها.

---

١ في الآية السابقة.

٢ طه، ٧١/٢٠.

٣ وفي هامش م: كذا في اللباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ٣٢٦/١٣. وأصله في الكشّاف للزمخشري، ٥٨/٣.

٤ في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ إمّا مفسِّرة، لأنّ "الوحي" فيه معنى "القول"، أو مصدريّة حُذف عنها الجارّ. والتعبير عنهم بعنوان كونهم عِبادًا له تعالى لإظهار المَرحَمة والاعتناء بأمرهم والتنبيهِ على غاية قُبح صنيع فرعونَ بهم حيث استعبدهم وهم عِباده عزّ وجلّ، وفعَل بهم مِن فنون الظلم ما فعَل، أي: وبالله لقد أوحينا إليه عليه السلام أن أسرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم مِن مَلَكة فرعونَ، أي: سِرْ بهم مِن مصرَ ليلًا.

﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ أي: فاجعَل أو فاتّخِذ لهم ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابسًا على أنّه مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً. وقُرئ: "يَبَسًا"[1] / وهو إمّا مخفَّف منه، أو وصف كـ"صَعْب"، أو جَمْعُ "يابس" كـ"صَحْب"، وُصف به الواحد للمبالغة أو لتعدّده حسبَ تعدّد الأسباط. [٥٦ظ]

﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ حال مِن المأمور، أي: آمِنًا مِن أن يُدرِكَكم العدوُّ، أو صفةٌ أخرى لـ﴿طَرِيقًا﴾ والعائدُ محذوفٌ. وقُرئ: "لَا تَخَفْ"[2] جوابًا للأمر.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿لَا تَخَافُ﴾ داخل في حكمه، أي: ولا تخشى الغرق، وعلى قراءة الجزم استئناف، أي: وأنت لا تخشى، أو عطفٌ عليه و"الألف" للإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب، ١٠/٣٣]. وتقديمُ نفي الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه مِن الخوف العظيم حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء، ٦١/٢٦].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أي: تبِعهم ومعه جنوده حتّى لحِقوهم، يقال: أتْبعتُهم، أي: تبِعتُهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتَهم، ويؤيّده أنّه قُرئ: "فَاتَّبَعَهُمْ"[3]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٩١.

٢ قرأ بها حمزة. **النشر** لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وهارون وعُبيد والأصمعي عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٩؛ **المغني في القراءات** للنُّوْزاوازي، ص ١٢٣٦.

مِن الافتعال. وقيل: المعنى أتْبَعَهم فرعونُ نفسَه، فحُذف المفعول الثاني. وقيل: "الباء" زائدة، والمعنى فأتْبَعهم فرعونُ جنوده، أي: ساقهم خلفهم.[1] وأيًا ما كان فـ"الفاء" فصيحة مُعرِبة عن مُضمَر قد طُوي ذِكرُه ثقةً بغاية ظهوره وإيذانًا بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر، أي: ففعَل ما أُمر به مِن الإسراء بهم وضَرْب الطريق وسلوكه، فأتْبَعهم فرعونُ بجنودِه برًّا وبحرًا.

رُوي أنّ موسى عليه السلام خرج بهم أوّلَ الليل وكانوا ستَّمائة وسبعين ألفًا، فأُخبر فرعونُ بذلك فأَتبَعهم بعساكره، وكانت مقدِّمته سبعمائة ألفٍ فقصّ أثرهم فلحِقهم بحيث تراءى الجمعان، فعند ذلك ضرَب عليه السلام بعصاه البحر فانفلق على اثني عشر فِرقًا كلُّ فِرق كالطَّود العظيم، فعبَر موسى عليه السلام بمَن معه مِن الأسباط سالمين وتبِعهم فرعونُ بجنوده.[2]

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: علاهم منه وغمَرهم ما غمَرهم مِن الأمر الهائل الذي لا يقادَر قَدْره ولا يُبلغ كُنهه. وقيل: غشِيهم ما سمعتَ قِصّته.[3] وليس بذاك؛ فإنّ مدار التهويل والتفخيمِ خروجُه عن حدود الفَهْم والوَصْف / لا سماعُ قِصّته. وقُرئ: "فَغَشَّاهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشَّاهُمْ"،[4] أي: [٥٧و] غطّاهم ما غطّاهم، والفاعلُ هو الله عزّ وعلا أو "ما غشّاهم". وقيل: فرعونُ؛ لأنّه الذي ورّطهم للهَلَكة.[5] ويأباه الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: سلَك بهم مَسلَكًا أدّاهم إلى الخَيبة والخُسران في الدِّين والدنيا معًا، حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتَّصل بالعذاب الخالد الأخروي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما أرشدهم قطُّ إلى طريق مُوصِل إلى مَطلَب مِن المطالب الدينيّة والدنيويّة، تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له، إذ رُبّ مُضِلّ قد يُرشِد مَن يُضِلّه إلى بعض مطالبه. وفيه نوعُ تهكُّم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٢ بعضه في معالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٦ (الأعراف، ٥٤/٧).

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣.

﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر، ٢٩/٤٠]، فإنّ نفي الهِداية مِن شخص مُشعرٌ بكونه ممّن يُتصوّر منه الهِداية في الجملة، وذلك إنّما يُتصوّر في حقِّه بطريق التهكّم.

وحملُ الإضلال والهداية على ما يختصّ بالديني منهما،[1] يأباه مقام بيان سَوقه بجنوده إلى مَساق الهلاك الدنيوي. وجعلُهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه،[2] ممّا لا يقبله العقل السليم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حكاية لِما خاطَبهم الله تعالى بعد إغراق فرعونَ وقومه وإنجائهم منهم، لكن لا عَقيب ذلك؛ بل بعد ما أفاض عليهم مِن فنون النِّعم الدينيّة والدنيويّة ما أفاض. وقيل: هو إنشاءُ خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على معنى أنّه تعالى قد منَّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبَعًا.[3] ويردُّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ الآية،[4] ضرورةَ استحالة حَمْله على الإنشاء، فالوجهُ هو الحكاية بتقدير: "قلنا" عطفًا على ﴿أَوۡحَيۡنَا﴾،[5] أي: وقلنا: يا بني إسرائيل.

﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعونَ وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوءَ العذاب / يذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءكم. وقُرئ: "نَجَّيْنَاكُمْ"[6] و"نَجَّيْتُكُمْ".[7] [٥٧ظ]

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ بالنصب على أنّه صفة للمضاف. وقُرئ بالجرّ للجوار،[8] أي: واعدناكم بواسطة نبيّكم إتيانَ جانبِه الأيمنِ نظرًا إلى السالك

---

١ وهو أحد وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٢ وهو ثاني وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٣. القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣، وقال بعد إيراده: «والوجه هو الأوّل»، ولم يذكر سببًا لترجيحه.

٤ طه، ٨٣/٢٠.

٥ طه، ٧٧/٢٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

مِن مصرَ إلى الشام، أي: إتيانَ موسى عليه السلام للمناجاة وإنزالَ التوراة عليه. ونُسبت المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرًا إلى ملابستها إيّاهم وسِراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقَّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧]، حيث نُسب الخَلْق والتصوير إلى المخاطَبين مع أنّ المخلوق المصوَّر بالذات هو آدمُ عليه السلام. وقُرئ: "وَاعَدْتُكُمْ"[١] و"وَعَدْنَاكُمْ".[٢]

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: التَّرَنْجَبين والسُّمَانى،[٣] حيث كان ينزِل عليهم المنّ وهم في التِّيه مثلَ الثلج مِن الفجر إلى الطلوع لكلّ إنسان صاع، ويبعث الجنوبُ عليهم السُّمَانى فيَذبح الرجل منه ما يكفيه، كما مرّ مرارًا.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

﴿كُلُوا۟﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان إباحة ما ذُكر لهم وإتمامًا للنعمة عليهم. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: مِن لذائذه أو حلالاته، وقُرئ: "رَزَقْتُكُمْ".[٤] وفي البدء بنعمة الإنجاء ثمَّ بالنعمة الدينيّة ثمّ بالنعمة الدُّنيويّة مِن حُسن النظم ولطفِ الترتيب ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم بالإخلال بشُكره والتعدّي لِما حُدّ لكم فيه كالسَّرَف والبَطَر والمنع مِن المستحِقّ. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ جواب للنهي، أي: فيلزَمكم عقوبتي وتجبَ لكم، مِن "حلّ الدَّينُ" إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: تردّى وهلَك. وقيل: وقَع في الهاوية.[٥] وقُرئ: "فَيَحُلَّ"[٦] بضمّ الحاء مِن "حَلّ يَحُلّ" إذا نزَل.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢١٢/٢.

٣ وفي هامش م: السُّمَانى كـ"حُبارى": طائر، للواحد والجمع. «منه».

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٦ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ مِن الشِّرك والمعاصي التي مِن جملتها الطغيان فيما ذُكر. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: / عملًا صالحًا [٥٨و] مستقيمًا عند الشرع والعقل. وفيه ترغيب لمَن وقع منه الطغيان فيما ذُكر وحثٌّ على التوبة والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام على الهدى، إشارةٌ إلى أنّ مَن لم يستمرَّ عليه بمَعزِل مِن الغفران. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبي.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ حكاية لِما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام مِن الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجَب المواعدة المذكورة، أي: قلنا له: أيُّ شيء أعجلك منفردًا عن قومكَ؟ وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدُّمه على النقباء مَسوقٌ لإنكار انفراده عنهم، لِما في ذلك بحسب الظاهر مِن مخائل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورًا باستصحابهم وإحضارهم معه، لا لإنكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه السلام لكونها نقيصة مُنافية للحزم اللائق بأولي العزم.

ولذلك أجاب عليه السلام بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعيّة حيث قال: ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يعني أنّهم معي، وإنّما سبقتُهم بخُطًا يسيرة ظننتُ أنّها لا تُخِلّ بالمعيّة ولا تقدح في الاستصحاب، فإنّ ذلك ممّا لا يُعتدّ به فيما بين الرفقة أصلًا.

وبعد ما ذَكَر عليه السلام أنّ تقدُّمه ذلك ليس لأمر منكَر ذَكَر أنّه لأمر مَرضي حيث قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ عنّي بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك. وزيادة ﴿رَبِّ﴾ لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قَبول العُذر.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية اعتذاره عليه السلام، وهو السرّ في وروده على صيغة الغائب، لا أنّه التفات مِن التكلّم إلى الغَيبة لِما[1] أنّ المقدّر فيما سبق مِن الموضعين على صيغة التكلّم،[2] كأنّه قيل مِن جهة السامعين: فماذا قال له ربّه حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: ابتليناهم بعبادة العِجل مِن بعد / ذهابك مِن بينهم. وهم الذين خلّفهم مع هارونَ عليه [٥٨ظ] السلام، وكانوا ستّمائةِ ألفٍ، ما نجا منهم مِن عبادة العِجل إلّا اثنا عشرَ ألفًا.[3]

و"الفاء" لترتيب الإخبار بما ذُكر مِن الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعجَلته، لكن لا لأنّ الإخبار بها سبب موجِب للإخبار به؛ بل لِما بينهما مِن المناسبة المصحِّحة للانتقال مِن أحدهما إلى الآخر مِن حيث إنّ مَدار الابتلاء المذكور عجَلة القوم، فإنّه رُوي أنّهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه السلام عشرين ليلةً بعد ذهابه فحسَبوها مع أيّامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العِدَة وليس مِن موسى عليه السلام عين ولا أثر.[4]

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حيث كان هو المدبّر في الفتنة فقال لهم: إنّما أخلَف موسى عليه السلام مِيعادكم لِما معكم مِن حُليّ القوم وهو حرام عليكم، فكان مِن أمر العجل ما كان. فإخبارُه تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه السلام إمّا باعتبار تحقّقها في عِلمه تعالى ومشيئته، وإمّا بطريق التعبير عن المتوقَّع بالواقع كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧] ونظائره، أو لأنّ السامري كان قد عزَم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدّى لترتيب مباديها وتمهيدِ مبانيها[5] فكانت الفتنة واقعةً عند الإخبار بها. وقُرئ: "وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ"[6] على صيغة التفضيل، أي: أشدُّهم ضلالًا لأنّه ضالّ ومُضِلّ.

---

١ وفي هامش م: تعليل للالتفات.

٢ ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٥ وفي هامش م: حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. «منه».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن أبي معاذ، والرُّهاوي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٣٩.

والسامري منسوب إلى قبيلة مِن بني إسرائيلَ يقال لها السامرة.[١] وقيل: كان عِلْجًا مِن كَرْمان. وقيل: مِن أهل باجرما.[٢] واسمُه موسى بن ظفر، وكان منافقًا قد أظهر الإسلام، وكان مِن قوم يعبدون البقر.[٣]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عند رجوعه المعهود، أي: بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة، / فسببيّةُ ما قبل "الفاء" لِما بعدها إنّما [٥٩و] هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد مِن قوله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلةً عليه حقيقة، فإنّ كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرَّر مشهور لا يذهب الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلتَ: "شايعتُ الحُجّاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا سالمين"، فإنّ أحدًا لا يرتاب في أنّ المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعُهم إثرَ الدعاء وأنّ سببيّة الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع. و"الأسِف": الشديد الغضب. وقيل: الحزين.[٤]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية رجوعه كذلك، كأنّه قيل: فماذا فعَل بهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يُعطيَكم التوراة فيها ما فيها مِن النور والهدى. و"الهمزة" لإنكار عدم الوعد ونفيه[٥] وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكَده، أي: وعَدكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى إنكاره.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ -أي: الزمان- للعطف على مقدَّر، و"الهمزة" لإنكار المعطوف ونفيِه فقط، أي: أوعَدكم ذلك، فطال زمان الإنجاز فأخطأتُم بسببه. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ أي: يجبَ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يقادَر قَدْره كائن ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن مالك أمركم على الإطلاق.

---

١ السامرة: هي قرية بين مكّة والمدينة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٧٨/٣.

٢ باجَرما: قرية مِن أعمال البَليخ، قرب الرقّة مِن أرض الجزيرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣١٣/١.

٣ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

٥ وفي هامش م: أي: نفي عدم الوعد. «منه».

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ أي: وعْدَكم إيّاي: بالثبات على ما أمرتُكم به إلى أن أرجِع مِن المِيقات على إضافة المصدر إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم، فإنّ إخلافهم الوعد الجاريَ فيما بينَهم وبينه عليه السلام مِن حيث إضافته إليه عليه السلام أشنعُ منه مِن حيث إضافته إليهم.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على كلّ واحد مِن شِقَّي الترديد على سبيل البدل، كأنّه قيل: أنسيتُم الوعد بطول العهد فأخلفتُموه خطأ أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه عَمْدًا؟ وأمّا جَعْل الموعد مضافًا إلى فاعله / وحَمْل [٥٩ظ] إخلافه على معنى وجدان الخُلف فيه، أي: فوجدتُم الخُلف في موعدي لكم بالعَود بعد الأربعين، فممّا لا يساعده السِّباق ولا السِّياق أصلًا.[١]

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ أي: وعدَنا إيّاك الثباتَ على ما أمرتَنا به. وإيثارُه على أن يقال: "موعدَنا" على إضافة المصدرِ إلى فاعله لِما مرّ آنفًا. ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أي: بأن ملَكنا أمورنا، يعنون أنّا لو خُلّينا وأمورنا ولم يسوّل لنا السامري ما سوّله مع مساعدة بعض الأحوال لَما أخلفناه. وقُرئ: "بِملْكِنَا" بكسر الميم[٢] وضمِّها،[٣] والكلُّ لغات في مصدر "ملَكتُ الشيء".

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ استدراك عمّا سبق واعتذار عمّا فعلوا ببيان منشأ الخطأ. وقُرئ: "حَمَلْنَا"[٤] بالتخفيف، أي: حمَلْنا أحمالًا مِن حُليّ القِبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج مِن مصرَ باسم العُرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثمّ لم يردّوها إليهم عند الخروج مخافةَ أن يقفوا على أمرهم. وقيل: هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم

---

١ القول وردّه بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٠.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

فأخذوها.[١] ولعلّ تسميتَهم لها أوزارًا لأنّها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحِلّ حينئذ.

﴿فَقَذَفْتُهَا﴾ أي: في النار رجاءً للخلاص عن ذنبها. ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك القذف ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: ما كان معه منها وقد كان أراهم أنّه أيضًا يُلقي ما كان معه مِن الحُليّ فقالوا ما قالوا على زَعْمهم، وإنّما كان الذي ألقاه التربةَ التي أخذها مِن أثر الرسول كما سيأتي. رُوي أنّه قال لهم: إنّما تأخَّر موسى عنكم لِما معكم مِن الأوزار، فالرأي أن نحفِر حَفيرةً ونسجِّر فيها نارًا ونقذفَ فيها كلَّ ما معنا ففعلوا.[٢]

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

[٦٠و] ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي: السامري ﴿لَهُمْ﴾ للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ / مِن تلك الحُليّ المُذابة. وتأخيره مع كونه مفعولًا صريحًا عن الجارّ والمجرور لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم، فإنّ قوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي: جُثّةً ذا دم ولحم، أو جسدًا مِن ذهَب لا روحَ له، بدلٌ منه. وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتُ عِجل، نعتٌ له.

﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: السامريُّ ومَن افتُتن[٣] به أوّل ما رآه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: غفَل عنه وذهب يطلُبه في الطُّور، وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري فعلًا وقولًا مِن جهته تعالى قصدًا إلى زيادة تقريرها، ثمّ ترتيبِ الإنكار عليها لا مِن جهة القائلين، وإلّا لقيل: "فأخرَج لنا".

والحملُ على أنّ عُدولهم إلى ضمير الغَيبة لبيان أنّ الإخراج والقول المذكورَين للكلّ لا للعَبَدة فقط،[٤] خلافُ الظاهر مع أنّه مُخِلّ باعتذارهم، فإنّ مخالفة بعضهم للسامري وعدمَ افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطابِ لهم ممّا يهوّن مخالفته للمعتذِرين، فافتتانُهم بعد ذلك أعظم جنايةً وأكثر شناعةً.

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠١.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠١.

٣ وفي هامش م: لازم ومتعدٍّ. «منه».

٤ ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعتذرين هم الذين لم يعبُدوا العجلَ وأنّ نسبة الإخلاف إلى أنفسهم وهم بُرآء منه مِن قبيل قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا"، مع أنّ القاتل واحد منهم، كأنّهم قالوا: ما وُجِد الإخلاف فيما بيننا بأمر كنّا نملِكه؛ بل تمكّنت الشبهة في قلوب العَبَدة حيث فعل السامري ما فعَل، فأخرَج لهم ما أخرَج وقال ما قال فلم نقدِر على صرفهم عن ذلك ولم نُفارقهم مخافةَ ازدياد الفتنة؛[1] فيقضي بفساده سِباق النظم وسِياقه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾... إلخ، إنكار وتقبيح مِن جهته تعالى لحال الضالّين والمُضلّين جميعًا وتسفيهٌ لهم فيما أقدَموا عليه مِن المنكَر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتّخاذه إلهًا. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألا يتفكّرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: أنّه لا يرجِع إليهم كلامًا ولا يردّ عليهم جوابًا، فكيف يتوهّمون أنّه إله؟ وقُرئ: "يَرْجِعَ"[2] بالنصب، قالوا: فالرؤية حينئذ بصَريّة، فإنّ "أن" الناصبةَ لا تقع بعد / أفعال اليقين، أي: ألا ينظرون [٦٠ظ] فلا يُبصرون عدمَ رَجْعه إليهم قولًا مِن الأقوال. وتعليقُ الإبصار بما ذُكر مع كونه أمرًا عدميًّا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيكِ عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ عطفٌ على ﴿لا يَرْجِعُ﴾ داخل معه في حيّز الرؤية، أي: أفلا يرون أنّه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرًّا أو يجلُبَ لهم نفعًا، أو لا يقدر على أن يضرَّهم إن لم يعبدوه أو ينفعَهم إن عبدوه.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ جملة قسَميّة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الإنكار

---

١ هذا القول رجّحه الواحدي في التفسير البسيط، ١٤/٤٩١-٤٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم والزّعفراني وابن صُبيح وأبان والشافعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٤١.

والتشنيع ببيان عُتوّهم واستعصائهم على الرسول إثرَ بيانِ مكابرتهم لقضيّة العقول، أي: وبالله لقد نصح لهم هارونُ ونبّههم على كُنه الأمر مِن قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابِه إيّاهم بما ذُكر مِن المقالات.

وقيل: مِن قبل قول السامري، كأنّه عليه السلام أوّل ما أبصره حين طلع مِن الحَفيرة توهَّم منهم الافتتان به، فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: أُوقِعتم في الفتنة[1] بالعِجل.[2] أو أُضللتُم به على توجيه القصر المستفادِ مِن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدّعيه القوم، لا إلى قَيده المذكور بالقياس إلى قيد آخرَ على معنى: إنّما فُعل بكم الفتنة لا الإرشادُ إلى الحقّ، لا على معنى: إنّما فُتنتم بالعِجل لا بغيره.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بكسر ﴿إِنَّ﴾ عطفًا على ﴿إِنَّمَا﴾ إرشادٌ لهم إلى الحقّ إثرَ زَجْرهم عن الباطل. والتعرّض لعنوان الربوبيّة والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحقّ، كما أنّ التعرض لوَصْف العِجل[4] للاهتمام بالزجر عن الباطل، أي: إنّ ربّكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا غيرُ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن مضمون الجملتين، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتّبعوني في الثبات على الدِّين ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ هذا واترُكوا عبادة ما عرفتُم شأنه.

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

﴿قَالُواْ﴾ في جواب هارونَ عليه السلام ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العِجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ / إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ جعلوا رجوعَه عليه [٦١و] السلام إليهم غايةً لعُكوفهم على عبادة العِجل، لكن لا على طريق الوعد بتَرْكها عند رجوعه عليه السلام؛ بل بطريق التعلّل والتسويف، وقد دسُّوا تحت ذلك أنّه عليه السلام لا يرجِع بشيء مُبين تعويلًا على مقالة السامري.

---

١ وفي هامش م: يقال: فَتَنَه: أوقَعه في الفتنة وأضَلّه.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٢-٦٣.

٣ وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».

٤ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ خُوَارٌ﴾. «منه».

رُوي أنّهم لمّا قالوه اعتزلهم هارونُ عليه السلام في اثني عشرَ ألفًا، وهم الذين لم يعبدوا العِجل، فلمّا رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقُصون حول العِجل قال للسبعين الذين كانوا معه: "هذا صوت الفتنة"، فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا.[1]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية جوابهم لهارون عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال موسى لهارونَ حين سمع جوابهم له؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهَد منهم ما شاهَد؟ فقيل: قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العِجل وبلغوا مِن المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: أن تتّبعَني، على أنّ "لا" مَزيدة، وهو مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾ وعامل في ﴿إِذْ﴾، أي: أيّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم مِن أن تتّبعني في الغضب لله تعالى والمقاتَلة مع مَن كفر به؟

وقيل: المعنى ما حمَلك على ألّا تتّبعني؟ فإنّ المنع عن الشيء مستلزِم للحَمْل على مقابله. وقيل: ما منعك أن تلحقَني وتُخبرَني بضلالهم فتكونَ مُفارقتُك مَزجَرة لهم؟[2]

وفيه أنّ نصائحَ هارونَ عليه السلام حيث لم يزجرهم عمّا كانوا عليه فلَأَن لا يزجُرَهم مفارقته إيّاهم عنه أَوْلى. والاعتذار بأنّهم إذا علِموا أنّه يلحقه ويُخبره عليهما السلام بالقصّة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك،[3] بمَعزِل مِن حيِّز القَبول، كيف لا، وهم قد صرّحوا بأنّهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: بالصلابة في الدِّين والمُحاماة عليه، فإنّ قوله له عليهما السلام: اخلُفني متضمّن للأمر بهما حتمًا، فإنّ الخلافةَ لا تتحقّق إلّا بمباشرة الخليفة ما كان / يباشره المستخلِف لو كان حاضرًا. و"الهمزة" [٦١ظ]

---

١ الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٩٠-٢٩١.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ١٣/٣٦٢-٣٦٣.

٣ ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألم تتّبعني؟ أو أخالفتني فعصيت أمري؟

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خَصّ الأمّ بالإضافة استعظامًا لحقّها وترقيقًا لقلبه، لا لِما قيل مِن أنّه كان أخاه لأمّ، فإنّ الجمهور على أنّهما كانا شقيقين.[1] ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي: بشَعر رأسي. رُوي أنّه عليه السلام أخَذ شَعر رأسه بيمينه ولحيتَه بشماله مِن شدّة غيظه وفَرْط غضبه لله تعالى، وكان عليه السلام حديدًا متصلِّبًا في كلّ شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العِجل ففعل ما فعل.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾... إلخ، استئناف سِيق لتعليل موجَب النهي ببيان الداعي إلى تَرْك المقاتلة وتحقيق أنّه غير عاصٍ لأمره؛ بل ممتثل به، أي: إنّي خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانَوا وتفرّقوا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ برأيك مع كونهم أبناءَ واحد، كما ينبئ عنه ذِكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه، وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال مِن التفريق الذي لا يُرجى بعده الاجتماع.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يريد به قوله عليه السلام: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾... إلخ [الأعراف، ١٤٢/٧]، يعني إنّي رأيت أنّ الإصلاح في حفظ الدَّهْماء والمُداراة معهم إلى أن ترجِع إليهم، فلذلك استأنيتُك لتكون أنت المتدارِكَ للأمر حسبما رأيت، لاسيّما وقد كانوا في غاية القوّة ونحن على القِلّة والضّعف، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف، ١٥٠/٧].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية ما سلَف مِن اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا صنع

---

[1] القول مع ذِكر رأي الجمهور مذكوران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٢/٢.

[2] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٣/٣.

موسى عليه السلام بعد سماع ما حُكي مِن الاعتذارَين واستقرارِ أصل الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موبِّخًا له: هذا شأنهم، ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما شأنك وما مطلوبك ممّا فعلت؟ خاطَبه عليه السلام بذلك ليُظهر للناس بُطلان كَيده / باعترافه ويفعل به وبما صنعه مِن العقاب ما يكون نكالًا للمفتونين به [٦٢و] ولمَن خلفهم مِن الأمم.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: السامري مجيبًا له عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ بضمّ "الصاد" فيهما، وقُرئ بكسرها في الأوّل وفتحها في الثاني،[1] وقُرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه،[2] أي: علمتُ ما لم يعلَمه القوم وفطِنت لِما لم يفطَنوا له، أو رأيتُ ما لم يرَوه، وهو الأنسب بما سيأتي مِن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ لاسيّما على القراءة بالخطاب، فإنّ ادّعاء عِلم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه، بخلاف ادّعاء رؤية ما لم يرَه عليه السلام، فإنّها ممّا يقع بحسَب ما يتّفق.

وقد كان رأى أنّ جبريل عليه السلام جاء راكبَ فرسٍ وكان كلّما رفَع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليَبَس يخرج مِن تحته النبات في الحال، فعرَف أنّ له شأنًا فأخذ مِن موطئه حفنة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. وقُرئ: "مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ"،[3] أي: مِن تربة مَوطئِ فرسِ المَلَك الذي أُرسلَ إليك ليذهبَ بك إلى الطُّور.

ولعلّ ذِكرَه بعنوان الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقِف عليه القوم مِن الأسرار الإلهيّة تأكيدًا لِما صدّر به مقالته والتنبيهِ على وقت أَخْذ ما أَخَذه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

و"القبضة" المرّة مِن القَبْض، أُطلقت على المقبوض مرّةً. وقُرئ بضمّ "القاف"،[1] وهو اسمُ المقبوض كـ"الغُرفة" و"المُضغة"، وقُرئ: "فَقَبَضْتُ قَبْصَةً"[2] بـ"الصاد" المهملة. والأوّل للأَخْذ بجميع الكفّ والثاني بأطراف الأصابع، ونحوُهما "الخَضْم" و"القَضْم".

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في الحُليّ المُذابة فكان ما كان ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: ما فعلتُه مِن القبض والنَّبْذ. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، ومحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في الأصل النصب على أنّه مصدر تشبيهي، أي: نَعْت لمصدر محذوف، والتقديرُ: سولّت لي نفسي تسويلًا كائنًا مثلَ ذلك التسويل، / فقُدِّم على الفعل لإفادة القَصْر، واعتُبرت "الكاف" مقحَمة لإفادة تأكيد [٦٢ظ] ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة فصار نفسَ المصدر المؤكَّد لا نعتًا له، أي: ذلك التزيين البديع زيَّنت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزيينًا أدنى منه ولذلك فعلتُه.

وحاصلُ جوابه أنّ ما فعله إنّما صدر عنه بمَحض اتّباع هوى النفس الأمّارة بالسوء وإغوائها، لا بشيء آخرَ مِن البرهان العقلي أو الإلهام الإلهي، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿فَاذْهَبْ﴾ أي: مِن بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾... إلخ، تعليل لموجَب الأمر، و﴿فِي﴾ متعلِّقة بالاستقرار في ﴿لَكَ﴾، أي: ثابت لك في الحياة، أو بمحذوف وقع حالًا مِن "الكاف"، والعاملُ معنى الاستقرار في الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لِمَكان ﴿أَن﴾، أي: ثابت لك كائنًا في الحياة، أي: مدّة حياتك أن تُفارقهم مفارقة كلّيّة، لكن لا بحسب الاختيار بموجَب التكليف؛ بل بحسب الاضطرار المُلجئ إليها.

وذلك أنّه تعالى رماه بداء عُقام لا يكاد يمَسّ أحدًا أو يمَسّه أحدٌ كائنًا مَن كان إلّا حُمّى مِن ساعته حُمّى شديدةً، فتحامى الناسَ وتحامَوه، وكان يصيح

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وابن الزُّبير وقتادة والحسن وحُميد ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١-٣١٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤٢.

بأقصى طَوقه: "لا مِساسَ" وحُرِّم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرُها ممّا يُعتاد جرَيانه فيما بين الناسِ مِن المعاملات، وصار بين الناس أوحشَ مِن القاتل اللاجئ إلى الحَرم ومِن الوحش النافِر في البرّيّة. ويقال: إنّ قومه باقٍ فيهم تلك الحالة إلى اليوم.[١] وقُرئ: "لا مَسَاسِ"[٢] كـ"فَجارِ" وهو عَلَم للمسّة.

ولعلّ السرَّ في مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصّة ما بينهما مِن مناسبة التضادّ، فإنّه لمّا أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببًا لحياة المَوات عُوقب بما يُضادّه حيث جُعلت ملابسته سببًا للحمّى التي هي مِن / أسباب موت الأحياء. [٦٣و]

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يُخلفك الله ذلك الوعدَ؛ بل ينجِزه لك البتّةَ بعد ما عاقبك في الدنيا. وقُرئ بكسر "اللام"،[٣] والأظهر أنّه مِن "أخلفتُ الموعدَ"، أي: وجدتُه خُلفًا. وقُرئ بـ"النون"[٤] على حكاية قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظلِلْتَ مقيمًا على عبادته، فحُذفت "اللام" الأولى تخفيفًا. وقُرئ بكسر "الظاء"[٥] بنَقْل حركة "اللام" إليها.

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جوابُ قسَم محذوفٍ أي: بالنار، ويؤيّده قراءةُ "لَنُحْرِقَنَّهُ"[٦] مِن الإحراق، وقيل: بالمِبْرَد على أنّه مبالغة في "حَرق" إذا بَرَد بالمِبرَد، ويعضده قراءة "لَنَحْرِقَنَّهُ".[٧]

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنُذْرِينّه، وقُرئ بضمّ "السين".[٨] ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ رمادًا أو مبرودًا كأنّه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر. ولقد فعَل عليه السلام

---

١ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني، والضرير وابن مسلم والوليد وابن عطيّة كلّهم عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٤٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وقتادة وابن أبي عبلة والأعمش وأبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٤٤.

٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

ذلك كلّه حينئذ، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنّما لم يصرَّح به تنبيهًا على كمال ظهوره واستحالة الخُلْف في وعده المؤكَّد باليمين.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ إثرَ إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكلّ، أي: إنّما معبودكم المستحقّ للعبادة الله ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود لشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه مِن غير أن يشاركه شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه التي مِن جملتها أحكامُ الألوهيّة. وقُرئ: "اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الرَّحْمَنُ رَبُّ العَرْشِ".[1]

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: "وسِع علمه كلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم" بدلٌ مِن الصلة، كأنّه قيل: إنّما إلهكم الذي وسِع كلّ شيء عِلمًا لا غيره كائنًا ما كان، فيدخل فيه العِجل دخولًا أوّليًا. وقُرئ: "وَسَّعَ"[2] بالتشديد، فيكون انتصابُ ﴿عِلْمًا﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه على القراءة الأولى فاعل حقيقةً، وبنَقْل
[٦٣ظ] / الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولًا أوّلَ، كأنّه قيل: وسّع عِلمَه كلَّ شيء، وبه تمّ حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مرّ مِن أنباء الأمم السالفة، وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبتِه وبُعدِ منزلته في الفضل. ومحلُّ الكاف النصبُ على أنّه نعت لمصدر مقدَّر، أي: نقصّ عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مِن الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصًّا مثلَ ذلك القَصّ المارّ. والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٩٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤٥.

و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾ في حيّز النصب إمّا على أنّه مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ باعتبار مضمونه، وإمّا على أنّه متعلِّق بمحذوف هو صفة للمفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، أي: جَمْعٌ دون ذلك، والمعنى نقصّ عليك بعضَ أنباء ما قد سبَق، أو بعضًا كائنًا مِن أنباء ما قد سبَق. وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢].

وتأخيره مِن ﴿عَلَيۡكَ﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أي: مثلَ ذلك القصّ البديع الذي سمِعتَه نقصّ عليك ما ذُكر مِن الأنباء لا قصًّا ناقصًا منه تبصِرةً لك وتوفيرًا لعِلمك وتكثيرًا لمعجزاتك وتذكيرًا للمستبصرين مِن أمّتك.

﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ أي: كتابًا منطويًا على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقًا بالتفكّر والاعتبار. وكلمة ﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، وتنكيرُ ﴿ذِكۡرٗا﴾ للتفخيم، وتأخيرُه عن الجارّ والمجرور لِما أنّ مرجِع الإفادة في الجملة كونُ المُؤتى مِن لدنه تعالى ذِكرًا عظيمًا وقرآنًا كريمًا / جامعًا لكلّ كمال، لا كونُ [٦٤و] ذلك الذِّكر مُؤتى مِن لدنه عزّ وجلّ مع ما فيه مِن نوع طول بما بعده مِن الصفة. فتقديمُه يذهَب برَونق النظم الكريم.

﴿مَنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾

﴿مَنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾ عن ذلك الذِّكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين. وقيل: عن الله عزّ وجلّ.[1] و﴿مَنۡ﴾ إمّا شرطيّة أو موصولة، وأيًّا ما كانت فالجملة صفة لـ﴿ذِكۡرٗا﴾.[2] ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: المُعرِض عنه ﴿يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ أي: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه. وتسميتُها وِزرًا إمّا لتشبيهها في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحِمل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهره، أو لأنّها جزاءُ الوِزْر وهو الإثم.[3] والأوّلُ هو الأنسب بما سيأتي مِن تسميتها حِملًا.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٣/٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٦٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في الوِزر أو في احتماله المستمرّ، حال مِن المستكِنّ في ﴿يَحْمِلُ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾ لِما أنّ الخلود في النار ممّا يتحقّق حالَ اجتماع أهلها، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس لهم، ففيه ضمير مبهَم يفسِّره ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: ساء حِملًا وِزرهم. و"اللام" للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ١٢/٢٣]، كأنه لمّا قيل: ﴿سَآءَ﴾ قيل: لمَن يقال هذا؟ فأجيبَ: لهم. وإعادةُ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لزيادة التقرير وتهويل الأمر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو منصوب بإضمار "اذكُر"، أو ظرف لمضمر قد حُذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانِه، حسبما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ٥/١٠٩] وقولِه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم، ١٩/٨٥]. وقُرئ: "نَنْفُخُ"[1] بالنون على إسناد النَّفْخ[2] إلى الآمر به تعظيمًا له، وبـ"الياء" المفتوحة على أنّ ضميره لله عزّ وجلّ أو لإسرافيلَ عليه السلام، / وإن لم يجْرِ ذِكره لشُهرته. [٦٤ظ]

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفَخ في الصُّور، وذِكرُه صريحًا مع تعيُّن أنّ الحَشْر لا يكون إلّا يومئذ للتهويل. وقُرئ: "وَيُحْشَرُ المُجْرِمُوْنَ".[3] ﴿زُرْقًا﴾ أي: حالَ كونهم زُرْق العيون، وإنّما جُعلوا كذلك لأنّ الزُّرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، فإنّ الروم الذين كانوا أعدى عدوّهم زُرق، ولذلك قالوا في صفة العدو: "أسودُ الكبد" و"أصهبُ السِّبال"[4] و"أزرقُ العين"، أو عُميًا لأنّ حدَقة الأعمى تزرقّ.

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٥.

٢ م: الفعل [صُحّح في هامش م].

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والصرصري، والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٩٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤٦.

٤ السِّبال جمع سَبَلة، وهي: الشارب. لسان العرب لابن منظور، «سبل».

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يخفِضون أصواتهم ويُخفونها لِما يملأ صدورهم مِن الرعب والهَول، استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ، أو حالٌ أخرى مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتُم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: عشرَ ليال استقصارًا لمدّة لُبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدّة الآخرة لتأسُّفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وأيقنوا أنّهم استحقُّوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتّباع الشهوات، أو في القبر، وهو الأنسب بحالهم.

فإنّهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا يُنكِرونه في الدنيا ويعُدّونه مِن قبيل المُحالات لا يتمالكون مِن أن يقولوا ذلك اعترافًا به وتحقيقًا لسرعة وقوعه، كأنّهم قالوا: قد بُعثتم وما لبثتم في القبر إلّا مدّة يسيرة، وإلّا فحالهم أفظعُ مِن أن تُمكّنهم مِن الاشتغال بتذكّر أيّام النعمة والسرور واستقصارها والتأسّف عليها.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدّة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم رأيًا أو عملًا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. ونسبةُ هذا القولِ إلى أمثلهم استرجاح منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق؛ بل لكونه أدلَّ / على شدَّة الهَول. [٦٥و]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: عن مآل أمرها، وقد سأل عنه رجل مِن ثقيف. وقيل: مشركو مكّةَ على طريق الاستهزاء. ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يجعلها كالرمل ثمّ يُرسل عليها الرياح فتُفرِّقها. و"الفاء" للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿فَيَذَرُهَا﴾ الضميرُ إمّا لـ﴿ٱلْجِبَالِ﴾[1] باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النَّسف، وهي مقارّها ومراكزها، أي: فيذَر ما انبسط منها وساوى سطحه

---

[1] في الآية السابقة.

سطوح سائر أجزاء الأرض بعد نَسْف ما نتأ منها ونشَز، وإمّا للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنّها الباقية بعد نَسْف الجبال، وعلى التقديرين يذَر الكلّ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لأنّ الجبال إذا سُوّيت وجُعل سطحها مساويًا لسطوح سائر أجزاء الأرض فقد جُعل الكلّ سطحًا واحدًا.

و"القاع" قيل: السهل. وقيل: المنكشِف مِن الأرض. وقيل: المستوي الصُّلْب منها. وقيل: ما لا نباتَ فيه ولا بناءَ.[1] والصَّفْصف: الأرض المستوية المَلساء، كأنّ أجزاءه صفّ واحد مِن كلّ جهة، وانتصابُ ﴿قَاعًا﴾ على الحاليّة مِن الضمير المنصوب، أو هو مفعول ثانٍ لـ﴿يَذَرُ﴾ على تضمين معنى التصيير. و﴿صَفْصَفًا﴾ إمّا حال ثانية، أو بدل مِن المفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: في مقارّ الجبال أو في الأرض على ما مرّ مِن التفصيل ﴿عِوَجًا﴾ بكسر العين، أي: اعوجاجًا ما، كأنّه لغاية خفائه مِن قبيل ما في المعاني، أي: لا تدركه إن تأمّلتَ بالمقاييس الهندسيّة. ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: نتُوءًا يسيرًا. استئنافٌ مبيّن لكيفيّة ما سبَق مِن القاع الصَّفْصَف، أو حالٌ أخرى أو صفة لـ﴿قَاعًا﴾. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن طول ربّما يُخلُّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُسفت الجبال على إضافة "اليوم" إلى وقت النَّسْف، / وهو ظرف لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾،[2] وليس بذاك. أي: يتّبع الناس داعيَ الله عزّ وجلّ إلى المَحشَر وهو إسرافيلُ عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائمًا على صخرة بيت المقدس، ويقول: أيّتها العِظام النخِرة والأوصال المتفرّقة واللحوم المتمزّقة قومي [٦٥ظ]

---

١ هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٣٨٩/١٣.

٢ طه، ١٠١/٢٠. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٦٦/٣.

إلى عَرض الرحمن، فيُقبلون مِن كلّ أَوْب إلى صَوبه. ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يُعوَجّ له مدعوّ ولا يعدِل عنه.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خُفضت لهيبته ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: صوتًا خفيًّا، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فُسِّر الهَمْس بخَفْق أقدامهم ونَقْلها إلى المَحشَر.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذُكر مِن الأمور الهائلة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ مِن الشفعاء أحدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن يشفَع له ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: ورضيَ لأجله قول الشافع في شأنه أو رضي قوله لأجله وفي شأنه، وأمّا مَن عداه فلا تكاد تنفعه وإن فُرض صدورها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة للناس، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر، ٤٨/٧٤].

فالاستثناء كما ترى مِن أعمّ المفاعيل. وأمّا كونه استثناءً مِن الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلّا شفاعة مَن أذِن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوَّزوه،[1] فلا سبيلَ إليه لِما أنّ حُكم الشفاعة ممّن لم يؤذَن له ألّا[2] يملِكها ولا تصدُر هي عنه أصلًا،[3] كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم، ٨٧/١٩] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء، ٢٨/٢١].

فالإخبارُ عنها بمجرَّد عدم نفعِها للمشفوع له ربّما يوهِم إمكان صدورها عمّن لم يؤذَن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة، ٤٨/٢] فمعناه عدم الإذن في الشفاعة، لا عدمُ قَبولها بعد وقوعها.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

٢ ط س: أن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ وفي هامش م: وجعلُه من قبيل:
ولا ترى الضبّ بها ينجحِر
أي: لا ضبٌّ ولا انجحارَ، تعسّفٌ بعيد. «منه». | والشعر لعمرو بن أحمرَ الباهلي. انظر تفصيل الكلام عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما تقدّمهم مِن الأحوال. وقيل: مِن أمر الدنيا.[١]

[٦٦و] ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم ممّا يستقبلونه. / وقيل: مِن أمر الآخرة.[٢]

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: لا تُحيط علومهم بمعلوماته تعالى. وقيل: بذاته، أي: مِن حيث اتّصافُه بصفات الكمال التي مِن جملتها العِلم الشامل. وقيل: الضمير لأحد الموصولَين أو لمجموعهما، فإنّهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيلَ ما علِموا منه.[٣]

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلّت وخضعت خضوعَ العُناة، أي: الأُسارى، في يد المَلِك القهّار، ولعلّها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك، ٢٧/٦٧]، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «خسِر مَن أشرك بالله ولم يتُب».[٤] وهو استئناف لبيان ما لأجله عنَت وجوههم، أو اعتراض، كأنّه قيل: خابوا وخسِروا. وقيل: حال مِن ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾،[٥] و﴿مَنْ﴾ عبارة عنها مُغنية عن ضميرها. وقيل: ﴿ٱلْوُجُوهُ﴾ على العموم،[٦] فالمعنى حينئذ: وقد خاب مَن حمَل منهم ظلمًا.

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ، قسيمٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، لا لقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾... إلخ، كما أنّه كذلك على الوجه الأوّل، أي: ومَن يعمل بعض الصالحات أو بعضًا مِن الصالحات على أحد الوجهين المذكورين في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه، ٩٩/٢٠].

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٤/١٣.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٤/١٣.

٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٦/٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٩٥/١٣.

٥ الوجه في التبيان للعكبري، ٩٠٥/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

٦ القول في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٦٥/٤؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣٩٥/٣.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإنّ الإيمان شرط في صحّة الطاعات وقَبول الحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: مَنْع ثواب مستحَقّ بموجَب الوعد، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسرًا منه بنَقْص، أو لا يخاف جزاءَ ظلم وهَضْم، إذ لم يصدُر عنه ظُلم ولا هَضْم حتّى يخافهما. وقُرئ: "فَلَا يَخَفْ"[1] على النهي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾،[2] وذلك إشارة إلى إنزال ما سبق مِن الآيات المتضمّنة للوعيد المنبئة عمّا سيقع مِن أحوال القيامة وأهوالها، أي: مثلَ ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ كلَّه. وإضماره مِن / غير سَبْق ذِكره للإيذان بنباهة شأنه وكونِه مركوزًا في العقول حاضرًا في الأذهان. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه مِن النظم المُعجز الدالّ على كونه خارجًا عن طَوق البشر نازلًا مِن عند خلّاق القُوى والقُدَر. [٦٦ظ]

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كرّرنا فيه بعض الوعيد أو بعضًا مِن الوعيد حسبما أشيرَ إليه آنفًا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يتّقوا الكفر والمعاصيَ بالفعل ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ اتّعاظًا واعتبارًا مؤدّيًا بالآخرة إلى الاتّقاء.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرّف عليها عباده مِن الأوامر والنواهي والوعد والوعيد وغير ذلك، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذُ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يُرجى وَعْده ويُخشى وعيدُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيّته لذاته، أو الثابتُ في ذاته وصفاته.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.
٢ طه، ٩٩/٢٠.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يُتَمّ ﴿وَحْيُهُۥ﴾ كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا ألقى إليه جبريلُ عليهما السلام الوحي يتبعه عند تلفّظ كلّ حرف وكلّ كلمة لكمال اعتنائه بالتلقّي والحفظ، فنُهيَ عن ذلك إثرَ ذِكر الإنزال بطريق الاستطراد، لِما أنّ استقرار الألفاظ في الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها، وربّما يَشغَل التلفّظ بكلمة عن سماع ما بعدها.

وأُمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل: ﴿وَقُل﴾ أي: في نفسك ﴿رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: سَلِ الله عزّ وجلّ زيادة العِلم، فإنّه المُوصل إلى طَلِبتك دون الاستعجال. وقيل: إنّه نُهي عن تبليغ ما كان مجمَلًا قبل أن يأتيَ بيانه.[1] وليس بذاك، فإنّ تبليغ المجمَل وتلاوته قبل البيان ممّا لا ريبَ في صحّته ومشروعيّته.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

[٦٧و] / ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبَق مِن تصريف الوعيد في القرآن، وبيانِ أنّ أساس بني آدمَ على العصيان وعِرْقه راسخ في النسيان، مع ما فيه مِن إنجاز الموعود في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾،[2] يقال: "عَهد إليه المَلك وعزَم عليه وأوعَز إليه وتقدّم إليه" إذا أمره ووصّاه، والمعهودُ محذوف يدلّ عليه ما بعده، و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: "وأُقسم" أو "وبالله" أو "وتالله"[3] لقد أمرناه ووصّيناه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل هذا الزمان.

﴿فَنَسِىَ﴾ أي: العهد ولم يعتنِ به حتّى غفَل عنه أو تَرَكه تَرْك المنسيّ عنه، وقُرئ: "فَنُسِيَ"،[4] أي: نسّاه الشيطان. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميمَ رأي وثباتَ قدَم في الأمور، إذ لو كان كذلك لَما أزلّه الشيطان ولَما استطاع أن يغُرّه، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره مِن قبل أن يجرّب الأمور ويتولّى حارّها

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٦.

٢ طه، ٢٠/٩٩.

٣ وفي هامش م: ولم يذكر "الواو" لمكان واو العطف. «منه».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

وقارّها[١] ويذوقَ شَزْيها[٢] وأَرْيها.[٣] عن النبيّ عليه السلام: «لو وُزنت أحلامُ بني آدمَ بحلم آدمَ لرجح حلمه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾».[٤] وقيل: عزمًا على الذنب، فإنّه أخطأ ولم يتعمّد.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ﴾ إن كان مِن الوجود العِلمي فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ مفعولاه قُدّم الثاني على الأوّل لكونه ظرفًا، وإن كان مِن الوجود المقابل للعدم، وهو الأنسبُ لأنّ مصبَّ الفائدة هو المفعول وليس في الإخبار بكون العزم المعدوم له مزيدُ مزيّة، فـ﴿لَهُۥ﴾ متعلّق به قُدّم على مفعوله، لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله المنكَّر، كأنّه قيل: ولم نصادف له عزمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ شروع في بيان المعهود وكيفيّة ظهور نسيانه وفقدان عزمه. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: واذكر وقت قولنا لهم. وتعليق الذّكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيه مِن الحوادث لِما مرّ مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذِكرها، / فإنّ الوقت مشتمِل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه. فالأمرُ [٦٧ظ] بذِكره أَمْر بذِكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على أعيان الحوادث، فإذا ذُكر صارت الحوادث كأنّها موجودة في ذِهن المخاطَب بوجوداتها العينيّة، أي: اذكر ما وقَع في ذلك الوقت منّا ومنه حتّى يتبيّن لك نسيانه وفقدان عزمه.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبَق الكلامُ فيه مرارًا. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنَفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ عن الإخبار بعدم سجوده، كأنّه قيل: ما بالُه لم يسجُد؟ فقيل: أبى واستكبر، ومفعول ﴿أَبَىٰ﴾ إمّا محذوف، أي: أبى السجود، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣١/١٥]، أو غيرُ مَنويّ رأسًا بتنزيله منزلةَ اللازم، أي: فعَل الإباءَ وأظهَره.

---

١ القارّ: البارد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».
٢ الشَّزْيُ: الحنظل. لسان العرب لابن منظور، «شري».
٣ الأري: العسل. لسان العرب لابن منظور، «أري».
٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٨٥/١٦؛ وبلفظه ههنا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ عَقيب ذلك اعتناء بنُصحه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيتَ ما فعَل ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: لا يكونَنّ سببًا لإخراجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ والمرادُ نهيُهما مِن أن يكونا بحيث يتسبَّب الشيطان إلى إخراجهما منها بالطريق البرهاني، كما في قولك: "لا أُرَينّك ههنا". و"الفاء" لترتيب موجَب النهي على عداوته لهما أو على الإخبار بها.

﴿فَتَشْقَىٰ﴾ جواب للنهي. وإسنادُ الشقاء إليه خاصّة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معًا لأصالته في الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. وقيل: المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادئ المعاش، وذلك مِن وظائف الرجال.[1]

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجبه النهيُ، فإنّ اجتماع أسباب الراحة فيها ممّا يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادي البقاء فيها، والجِدّ في الانتهاء عمّا يؤدّي إلى الخروج عنها.

[٦٨و] والعدول عن التصريح بأنّ له عليه السلام فيها تنعّمًا / بفنون النّعم مِن المآكل والمشارب وتمتّعًا بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المَرْضيّة، مع أنّ فيه مِن الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذُكر مِن نَفْي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعُري والضحُوُّ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيهِ على ما فيها مِن أنواع الشّقوة التي حذّره عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدّي إليها.

على أنّ الترغيب قد حصَل بما سُوّغ له مِن التمتّع بجميع ما فيها سوى ما استُثني مِن الشجرة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا[2] يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة، ٢/٣٥]، وقد طُوي ذكرُه ههنا اكتفاءً بما ذُكر في موضع آخرَ، واقتُصر على ما ذُكر مِن الترغيب المتضمّن للترهيب.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٩.

٢ م ط - ﴿قُلْنَا﴾.

ومعنى ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾... إلى آخره، ألّا يصيبه شيء مِن الأمور الأربعة أصلًا، فإنّ الشبع والرّيّ والكسوة والكنّ قد تحصُل بعد عُروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكَن، وليس الأمر فيها كذلك؛ بل كلُّ ما وقع فيها شهوة ومَيْل إلى شيء مِن الأمور المذكورة تمتُّع به مِن غير أن يصل إلى حدّ الضرورة.

ووجهُ إفراده عليه السلام بما ذُكر ما مرّ آنفًا.[1]

وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذّكر مع تجانُسهما وتقارنهما في الذّكر عادة، وكذا حالُ العُري والضحوّ المتجانسَين، لتوفية مقام الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أنّ نفيَ كلّ واحد مِن تلك الأمور نعمة على حِيالها، ولو جُمع بين الجوع والظمأ لربّما تُوهّم أنّ نفيهما نعمة واحدة، وكذا الحال في الجمع بين العُري والضحوّ، على منهاج قصّة البقرة،[2] ولزيادة التقرير بالتنبيه على أنّ نفي كلّ واحد مِن الأمور المذكورة مقصود بالذات مذكورٌ بالأصالة، لا أنّ نفي بعضها مذكورٌ بطريق الاستطراد والتبعيّة لنفي / بعض آخرَ، كما عسى يُتوهَّم لو جُمع بين كلّ [٦٨ظ] مِن المتجانسَين.

وقُرئ: "إنَّكَ"[3] بالكسر، والجمهور على الفتح بالعطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾. وصحّةُ وقوع الجملة المصدَّرة بـ"أنّ" المفتوحة اسمًا للمكسورة المشاركةِ لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرًا لها لِما أنّ المحذور اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة، ولا اجتماعَ فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيّزهما، بخلاف ما لو وقعت خبرًا لها، فإنّ اتّحادَ المناط حينئذ ممّا لا ريبَ فيه.

بيانُه أنّ كلّ واحدة مِن المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبريّة المنعقدة مِن اسمها وخبرها، ولا يخفى أنّ مرجع خبريّتها ما فيها مِن الحُكم الإيجابي أو السلبي، وأنّ مناط ذلك الحُكم خبرها لا اسمُها،

---

١ في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

٢ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين منها. ٢/٣٢٢.

٣ قرأ بها نافع وأبو بكر. النشر لابن الجزري،

فمدلولُ كلّ منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها في نفسه. فاللازمُ مِن وقوع الجملة المصدَّرة بالمفتوحة اسمًا للمكسورة تحقيقُ ثبوت خبرها لتلك الجملة المئوَّلة بالمصدر.

وأمّا تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة حتمًا، فلم يلزَم اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة قطعًا، وإنّما لم يُجوّزوا أن يقال: "إنّ أنّ زيدًا قائم" حقّ مع اختلاف المناط؛ بل شرطوا الفصل بالخبر، كقولنا: "إنّ عندي أنّ زيدًا قائم" للتجافي عن صورة الاجتماع.

و"الواو" العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمةً مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها، لكنّها حيث لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق لم يلزم مِن دخولها على المفتوحة اجتماعُ حرفَي التحقيق أصلًا، فالمعنى إنّ لك عدمَ الجوع وعدم العُري وعدم الظمأ، خلا أنّه لم يُقتصَر على بيان أنّ الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحوّ مطلقًا كما فُعل مثله في المعطوف عليه؛ بل قُصد بيانُ
/ أنّ الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما، فوُضع موضعَ الحرف المصدري [٦٩و]
المَحْض "أنّ" المفيدةُ له، كأنّه قيل: إنّ لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أنهى إليه وسوسته أو أسرّها إليه. ﴿قَالَ﴾ إمّا بدل مِن ﴿وَسْوَسَ﴾ أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: فماذا قال في وسوسته؟ فقيل: قال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: شجرةِ مَن أكَل منها خلَد ولم يمُت أصلًا، سواءٌ كان على حاله أو بأن يكون ملَكًا، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف، ٧/ ٢٠]. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: لا يزول ولا يختلّ بوجه مِن الوجوه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: عَريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتّى بدت فُروجهما.[١] ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة الأعراف.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بما ذُكر مِن أَكْل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضلّ عن مطلوبه الذي هو الخلود، أو عن المأمور به، أو عن الرشد حيث اغترّ بقول العدوّ. وقُرئ: "فَغَوِيَ"[٢] مِن "غَوِيَ الفصيل" إذا أُتخم مِن اللبن. وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغَواية مع صغر زلّته تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِن "اجتبى الشيء" بمعنى جباه لنفسه، أي: جمَعه، كقولك: "اجتمعتُه"، أو مِن "جُبيَ إليّ كذا فاجتبيتُه" مثل "جُليَتْ عليَّ العروسُ فأجتليتُها"، وأصلُ الكلمة الجمع. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلَين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف، ٢٣/٧]. وإفرادُه عليه السلام / بالاجتباء وقَبول التوبة قد مرّ وجهه.[٣] ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: إلى الثبات على التوبة والتمسّك بأسباب العصمة. [٦٩ظ]

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بأنّه تعالى قَبِل توبته وهداه، كأنّه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾

---

١ تفسير الرازي، ١٠٨/٢٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٠٨/١٣.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٧/٢.

٣ في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

أي: انزلا مِن الجنّة إلى الأرض. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال مِن ضمير المخاطَب في ﴿ٱهْبِطَا﴾. والجَمْع لِما أنّهما أصل الذرّيّة ومنشأ الأولاد، أي: مُتعادِين في أمر المَعاش، كما عليه الناس مِن التجاذُب والتحارُب.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ مِن كتاب ورسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ وُضع الظاهر موضعَ المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتّباعه، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: عن الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيّقًا. مصدر وُصِف به، ولذلك يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث. وقُرئ: "ضَنْكَى"[1] كـ"سَكْرى"؛ وذلك لأنّ مَجامع هِمّته ومَطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها وخائف مِن انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنّه قد يضيّق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسّع ببركة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة، ٦١/٢]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف، ٩٦/٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة، ٦٥/٥] إلى قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة، ٦٦/٥]. وقيل: «هو الضريع والزقّوم في النار».[2] وقيل: «عذاب القبر».[3]

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ وقُرئ بسكون "الهاء" على لفظ الوقف وبالجزم[4] عطفًا على محلّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؛ لأنّه جواب الشرط. / ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ فاقدَ البصر، [٧٠و]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

٢ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٩٤/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

٣ مرويّ عن أبي سعيد الخُدري وابن مسعود وأبي هُريرة وغيرهم في جامع البيان للطبري، ١٩٦/١٦-١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء، ٩٧/١٧]، لا أعمى عن الحجّة كما قيل.[١]

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا. وقُرئ: "أَعْمى" بالإمالة في الموضعين،[٢] وفي الأوّل فقط،[٣] لكونه جديرًا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحلّ الوقف.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك فعلتَ أنت، ثمّ فُسّر بقوله تعالى: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحة نيّرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: عَميتَ عنها وتركتها تركَ المنسيّ الذي لا يُذكر أصلًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾[٤] ومثلَ ذلك النسيان الذي كنت فعلتَه في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تُترَك في العمى والعذاب جزاءً وفاقًا، لكن لا أبدًا كما قيل؛[٥] بل إلى ما شاء الله تعالى، ثمّ يُزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهِد مقعده مِن النار ويكون ذلك له عذابًا فوق العذاب، وكذا البَكَم والصمَم يزيلهما الله تعالى عنهم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم، ٣٨/١٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّبها وأعرَض عنها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذابُ النار ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: مِن ضَنْك العيش، أو منه ومِن الحشر على العمى.

---

١ مَرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٠٠/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

٤ س + أي.

٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ الآية.[1] و"الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام.

واستعمال الهداية بـ"اللام" إمّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، فلا حاجةَ إلى المفعول، أو لأنّها بمعنى التبيين والمفعولُ محذوف. وأيًّا ما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها. وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: أَغَفلوا فلم يفعل الهدايةَ لهم، أو فلم يبيّن لهم مآلَ أمرهم كثرةُ إهلاكنا للقرون الأولى. وقد مرّ في قوله عزّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ الآية [الأعراف، ٧/١٠٠].

وقيل: الفاعل الضمير العائد إلى الله عزّ وجلّ، ويؤيّده القراءة بنون العظمة،[2] وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، إمّا معلِّق للفعل سادّ مسدَّ مفعوله، أو مفسِّر لمفعوله المحذوف، هكذا قيل.[3] والأوجهُ ألّا يُلاحَظ له مفعول، كأنّه قيل: أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية؟ ثمّ قيل بطريق الالتفات: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، بيانًا لتلك الهداية، و﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ في محلّ النصب على أنّه وصف لمميِّز ﴿كَمْ﴾، أي: كم قرنًا كائنًا مِن القرون.

وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلْقُرُونِ﴾، أو مِن مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم وهم في حال أَمْن وتقلُّب في ديارهم، أو مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ مؤكّد للإنكار والعاملُ ﴿يَهْدِ﴾. والمعنى: أفلم يهدِ لهم إهلاكُنا للقرون السالفة مِن أصحاب الحِجر وثمودَ وقُريّات قوم لوطٍ حالَ كونهم ماشين

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد وابن عبّاس والسُّلمي، وابن كامل والغضائري كلاهما عن رُويس، والزّعفراني عن رَوح. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٤؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١٢٥٠.

٣ الوجهان في **التبيان** للعكبري، ٢/٩٠٧؛ ونقله عنه ابن عادل في **اللباب**، ٣/٤١٨.

في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم؟ مع أنّ ذلك ممّا يوجب أن يهتدوا إلى الحقّ فيعتبروا لئلّا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك. / وقُرئ: [٧٠ظ] "يُمَشُّوْنَ"[1] على البناء للمفعول، أي: يمكُثون مِن المَشْي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم، وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلته وعُلوّ شأنه في بابه. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ كثيرةً عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحقّ، فإذن هو هادٍ وأيُّما هادٍ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، فافهمْ.

﴿لِأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن القبائح التي مِن أقبحها ما يتعاطاه كفّار مكّة مِن الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك مِن فنون المعاصي. وفيه دلالة على أنّ مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يُشعر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الآية،[2] مِن أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب القرون المهلَكة، أي: ولولا الكلمة السابقة وهي العِدَة بتأخير عذاب هذه الأمّة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه. ﴿لَكَانَ﴾ عقابُ جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لازمًا لهؤلاء الكفَرة بحيث لا يتأخَّر عن جناياتهم ساعةً لزومَ ما نزَل بأولئك الغابرين.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويحٌ بأنّ ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]. واللِّزام إمّا مصدر "لازمٌ" وُصف به مبالغةً، وإمّا "فِعال" بمعنى "مِفْعل"، جُعل آلةَ اللزوم لفَرْط لزومه، كما يقال: "لِزازَ خَصْم".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السُّميفع، وعيسى بن عمر، والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٢٥٠.

٢ في الآية السابقة.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي: ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم -وهو يوم القيامة ويوم بدر- لَما تأخَّر عذابهم أصلًا. وفصلُه عمّا عُطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب ﴿لَوْلَا﴾، وللإشعار باستقلال كلّ منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي الكريمة. وقد جُوّز عطفه على المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم مِن السّياق تنزيلًا للفصل بالخبر منزلةَ التأكيد، أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمًّى لازمَين لهم كدأب عاد وثمودَ وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمّى دون الأخذ العاجل.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: إذا كان الأمر على ما ذُكر مِن أنّ تأخير عذابهم ليس بإهمال؛ بل إمهال وأنّه لازم لهم البتّة، فاصبرْ على ما يقولون مِن كلمات الكُفر، فإنّ عِلمه صلّى الله عليه وسلّم بأنّهم معذّبون لا محالةَ ممّا يُسلّيه ويحمِلُه على الصبر.

﴿وَسَبِّحْ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ وأنت حامد لربّك الذي يبلّغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه، أو نزّهه تعالى عمّا ينسبونه إليه ممّا لا يليق بشأنه الرفيع حامدًا له على ما ميّزك بالهدى معترفًا بأنّه مُولي النّعم كلّها. والأوّل هو الأظهر المناسب لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾... إلخ، فإنّ توقيت التنزيه غير معهود، فالمرادُ صلاة الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاتَي الظهر والعصر؛ لأنّهما قبل غروبها بعد زوالها. وجَمْعهما لمناسبته لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾. وقيل: صلاة العصر.[1]

﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: مِن ساعاته، جمع "إنًى" بالكسر والقصر، و"أناء" بالفتح والمدّ. ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصَلِّ. والمراد به المَغرِب والعشاء. وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإنّ القلب فيهما أجمَع والنفسَ

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٩.

إلى الاستراحة أميَلُ، فتكون العبادة فيهما أشقّ، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل، ٦/٧٣].

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكرير لصلاتَي الفجر / والمَغرِب إيذانًا باختصاصهما بمزيد مزيّة. ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس، كقول مَن قال: [٧١و]

ظَهْراهما مِثْلُ ظُهورِ التُّرْسَينْ[1]

أو أمرٌ بصلاة الظهر، فإنّه نهاية النصف الأوّل مِن النهار وبداية النصف الأخير، وجمعُه باعتبار النصفين، أو لأنّ النهار جنس، أو أمر بالتطوّع في أجزاء النهار.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلّق بـ﴿سَبِّحْ﴾، أي: سبّح في هذه الأوقات رجاءَ أن تنال عنده تعالى ما ترضَى به نفسك. وقُرئ: "تُرْضَى"[2] على صيغة البناء للمفعول، مِن "أَرْضى"، أي: يُرضيك ربّك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تُطل نظرهما بطريق الرغبة والمَيل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ مِن زخارف الدنيا. وقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا مِن الكفَرة، مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾ قُدّم عليه الجارّ والمجرور للاعتناء به، أو هو حال مِن الضمير والمفعولُ ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: إلى الذي متّعنا به -وهو أصناف وأنواع- بعضَهم على أنّه معنى ﴿مِن﴾ التبعيضيّة، أو بعضًا منهم على حذف الموصوف كما مرّ مرارًا.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف يدلّ عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾، أي: أعطينا، أو به على تضمين معناه، أو بالبدليّة مِن محلّ ﴿بِهِۦٓ﴾، أو مِن ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بتقدير مضاف أو بدونه، أو بالذمّ، وهي الزينة والبهجة.

---

١ لخطام المجاشعي أو هِيمان بن قُحافة في كتاب سيبويه، ٤٨/٢، ٦٢٢/٣؛ وأمالي ابن الشجري، ١٦/١؛ وهو بلا عزو في البيان والتبيين للجاحظ، ١٥٦/١؛ والصحاح للجوهري، «مرت»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣١/٤ (البقرة، ١٩٧/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

٢ قرأ بها الكسائي وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

وقُرئ: "زَهَرَةَ"[1] بفتح الهاء، وهي لغة كـ"الجَهَرة" في "الجَهْرة"، أو جَمْعُ "زاهر"، وَصْف لهم بأنّهم زاهرو الدنيا لتنعّمهم وبهاء زيّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزُّهّاد.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾ جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلًا إثر إظهار بهجته حالًا، أي: لنُعاملهم معاملة مَن يبتليهم ويختبرهم فيه، أو لنُعذّبهم في الآخرة بسببه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي: ما ادخّر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا مِن النبوّة والهُدى ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا منحهم في الدنيا، لأنّه مع كونه في نفسه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمونُ الغائلة، بخلاف ما مُنحوه. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنّه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدًا، كما عليه زَهْرة الدنيا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له مِن أمّته بالصلاة بعد ما أُمر هو بها، ليتعاونوا على الاستعانة على خَصاصتهم ولا يهتمّوا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لِفْتَ أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وثابرْ عليها غيرَ مشتغل بأمر المعاش ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلّفك أن ترزُق نفسك ولا أهلك.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم ففرّغْ بالك بأمر الآخرة. ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه تنبيهًا على أنّ مَلاك الأمر هو التقوى. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا أصاب أهلَه ضُرّ أمَرَهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أُمر عليه السلام بالصبر عليها، أي: هلّا يأتينا بآية تدلّ على صدقه في دعوى النبوّة، أو بآية ممّا اقترحوها. بلغوا مِن المكابرة والعناد إلى حيث لم يعُدّوا ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخرّ لها صُمّ الجبال مِن قبيل الآيات حتّى اجترأوا على التفوّه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: **التوراة والإنجيل** وسائر الكتب السماويّة، ردٌّ مِن جهته عزّ وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسُّوا تحتها مِن إنكار إتيان الآية بإتيان **القرآن** الكريم الذي هو أمُّ الآيات وأسُّ المعجزات وأعظمها وأبقاها؛ لأنّ حقيقة المعجزة اختصاص مدّعي النبوّة بنوع مِن الأمور / الخارقة للعادات أيّ أمر كان. ولا ريبَ في أنّ [٧١ظ] العِلم أجلّ الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأوّلين والآخرين على يد أمّي لم يمارس شيئًا مِن العلوم ولم يُدارس أحدًا مِن أهلها أصلًا، فأيُّ معجزة تُراد بعد وروده؟ وأيُّ آية تُرام مع وجوده؟

وفي إيراده بعنوان كونه بيّنة لِما في الصُّحف الأولى مِن **التوراة والإنجيل** وسائر الكتب السماويّة، أي: شاهدًا بحقّيّة ما فيها مِن العقائد الحقّة وأصول الأحكام التي أجمعت عليها كافّة الرسل، وبصحّة ما تنطق به مِن أنباء الأمم مِن حيث إنّه غنيٌّ بإعجازه عمّا يشهد بحقّيّته حقيقٌ بإثبات حقّيّة غيره، ما لا يخفى[1] مِن تنويه شأنِه وإنارةِ برهانه ومزيدُ تقرير وتحقيقٍ لإتيانه.

وإسناد الإتيان إليه مع جَعْلهم إيّاه مأتيًّا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه مِن المناسبة للبيّنة. و"الهمزة" لإنكار الوقوع، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: ألم يأتهم سائرُ الآيات ولم تأتِهم خاصّة بيّنة ما في الصُّحف الأولى، تقريرًا لإتيانه وإيذانًا بأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتأتّى منهم إنكاره أصلًا، وإن اجترأوا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعنادًا.

---

[1] السياق: وفي إيراده... ما لا يخفى...

وقُرئ: "أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ"[1] بالياء التحتانيّة. وقُرئ: "الصُّحْفِ"[2] بالسكون تخفيفًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ إلى آخر الآية جملة مستأنَفة سِيقت لتقرير ما قبلها مِن كون القرآن آية بيّنة لا يمكن إنكارها ببيان أنّهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنّا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ متعلّق بـ"أهلكنا" أو بمحذوف هو صفةٌ لـ﴿عَذَابٍ﴾، أي: بعذاب كائن مِن قبل إتيانِ البيّنة أو مِن قبل محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَقَالُوا۟﴾ أي: يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿رَسُولًا﴾ مع كتاب ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنّا لم نُهلكهم قبل إتيانها فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا: ما نزّل الله مِن شيء.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمرّدين ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحد منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظِر لِما يئول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾. وقُرئ: "فَتَمَتَّعُوا".[3] ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ أي: المستقيم. وقُرئ: "السَّوَاءِ"، أي: الوسط الجيّد، وقُرئ: "السَّوْءِ"[4] و"السُّوْءَى"[5] و"السُّوَيِّ"[6] تصغيرُ "السوء".

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مِن الضلالة و﴿مَن﴾ في الموضعين استفهاميّة محلُّها الرفع بالابتداء خبرُهما ما بعدهما، والجملةُ سادّة مَسدّ مفعولَي العِلم أو مفعوله،

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف وابن جمّاز بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢-٣٢٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مِصرف وطلحة بن سليمان. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٥٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤١١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي مِجلز وعمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٥٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري ويحيى بن يعمُر. المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٥٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمُر وعِصمة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٥؛ المغني في القراءات للنُّوْزاوازي، ص ١٢٥٣.

ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد، فتكون معطوفةً على محلّ الجملة الاستفهاميّة المعلَّق عنها الفعل على أنّ العِلم بمعنى المعرفة أو على ﴿أَصْحَٰبُ﴾، أو على ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾. وقيل: العائد في الأولى محذوف،[1] والتقدير: مَن هم أصحاب الصراط.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ طه أُعطيَ يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار».[2] وقال: «لا يقرأ أهلُ الجنّة مِن القرآن إلّا سورةَ طه ويس».[3]

---

١ نقله عن الفرّاء العكبري في التبيان، ٢/٩١٠.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣/٧٤. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٥٦.

٣ س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أواسط جمادى الأولى، لسنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا. | والرواية في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٤٨٦ (طه، ١/٢٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٧٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٥٦.